

قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

قبس من مشكاة

الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم

أ.د/ عبد الحميد هنداوي

رئيس قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

وأستاذ التحقيق ومناهج البحث

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الرحيم الرحمن ، علم القرآن ،وخلق الإنسان وعلمه البيان.

وأصلي وأسلم على أفصح الخلق لسانا ، وأحسنهم بيانا ، محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار ، صلاة وسلاما دائمين ما بقي الليل والنهار.

وبعد :

تدور مادة هذا الكتاب حول بلاغة القرآن الكريم ، ذلك الكلام المعجز المتعبد بتلاوته الذي تحدى الله تعالى ببلاغته ونظمه الإنس والجن ؛ فقال عز من قائل: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)** ﴾ [الإسراء:٨٨] فعجز الجميع من الإنس والجن أن يأتوا بمثله من وقت التحدي إلى زماننا هذا.

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا كذلك فقال عز من قائل: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)** ﴾ [هود:١٣، ١٤]

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا كذلك فقال عز من قائل: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)** ﴾ [البقرة:٢٣- ٢٤].

ومهما قيل في اشتمال القرآن على إشارات علمية أو إخبارات غيبية أو أحكام تشريعية أو فضائل وقيم أخلاقية تصلح في الحقيقة أن تكون وجوها لإعجاز القرآن وتحدي الناس أن يأتوا بمثل هذه العلوم من مثل هذا الرجل الأمي محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن أعظم وجوه إعجاز

القرآن على الإطلاق هي في لغته الربانية التي عبرت عن كل هذه المعاني التي لا تنقضي عجائبها على مر الزمان.

إن سر إعجاز القرآن الذي لا يختلف عليه أحد من الدارسين إنما يرجع إلى بلاغته وفصاحته التي تحدى بها أرباب البلاغة والفصاحة فيما عبر عنه من المعاني والقيم ،وإن كان - في رأينا - أن كل ما جاء به القرآن من معان وتشريعات وأخلاق وأخبار وإشارات علمية وغير ذلك هو جدير بأن يقوم به التحدي كذلك بأن يطلب الإتيان بشيء من ذلك من مثل محمد الأمي الذي علم العلماء بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كان أعظم وجوه الإعجاز القرآني يرجع إلى ذلك الإعجاز البياني البلاغي- الذي هو وعاء كل ما ذكره العلماء من وجوه إعجاز القرآن - فإن هذه المادة : مادة البلاغة القرآنية - هي العلم الذي يضطلع ببيان وجوه ذلك الإعجاز اللغوي الذي لا يقوم إلا بمراعاة فنون البلاغة والفصاحة المعهودة في كلام العرب في أعلى صورها دون خلل أو تفاوت في نظم هذا الكتاب المعجز من سورة لغيرها بل من آية لأخرى ؛ذلك الإعجاز الذي عبر عنه بعض علمائه فقال :" كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد."

ومن ثم تدور وحدات هذا الكتاب حول نظم القرآن ووجوه إعجازه وبلاغة ألفاظه وأساليبه وصوره وغير ذلك مما تشمله الوحدات التالية:

الوحدة الأولى: بلاغة اللفظة القرآنية

الوحدة الثانية : التنويع الأسلوبي في القرآن الكريم

الوحدة الثالثة : التصوير الفني والبياني في القرآن الكريم

هذا؛ وقد هدفنا في هذا الكتاب إلى إيقاف الدارسين على النماذج الجميلة الرائقة لبلاغة القرآن ، والارتقاء بذوقه لفهم تلك النماذج وأمثالها والقدرة على تحليلها، والتعبير عما فيها من وجوه إعجاز القرآن الكريم وبلاغته.

وبعد؛ فهذا ما قصدنا إليه؛ وعلى الله قصد السبيل .

المؤلف

الوحدة الأولى

بلاغة اللفظة القرآنية

الأهداف :

١-إيقاف الدارس على بلاغة اللفظ و قيمته الفنية في القرآن الكريم وبيان إعجازه واتساع دلالته.

٢-إيقاف الدارس على :

بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق و المقام.

بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المشترك اللفظي

بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المتواطئ

بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز

بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.

٣-تقوية الحس البلاغي لدى الدارس بتحليل عدد من الألفاظ القرآنية المشتملة على المعاني الثرة المطابقة لمقامها وسياقها.

العناصر :

١. تمهيد عن بلاغة اللفظ القرآني

٢. بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق و المقام.

٣. بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المشترك اللفظي

٤. بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المتواطئ

٥. بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز

٦. بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي.

تمهيد :

لعل هذا النوع من الإعجاز يعد أبرز أنواع الإعجاز على الإطلاق ؛ ولذا فقد توفرت عليه الدراسات حول إعجاز القرآن الكريم – في القديم والحديث.

ونقصد به : دقَّة اختيار القرآن الكريم لألفاظه ذات الدلالة المعجمية المطابقة لسياقها ومقامها أتم المطابقة ؛ بحيث لا يصلح أن تحلَّ كلمة مكان تلك الكلمة القرآنية المختارة لسياقها.

ومن ثم يقرر أحد العارفين بإعجاز اللفظ القرآني أن " كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد." (١)

ومن أهم مظاهره :

- بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق والمقام.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المشترك اللفظي
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المتواطئ
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي.

وسوف أعرض هنا لكل واحدة من هذه الظواهر بشيء من التفصيل :

بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق والمقام :

فمن ذلك المفاضلة بين كلمتي : تستأنسوا - تستأذنوا

فقد وردت كلمة تستأنسوا في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور:٢٧]

فنلاحظ أن كلمة تستأنسوا هنا تحملِ من المعاني والظلال المناسبة لهذا السياق ما لا تؤديه كلمة أخرى من الكلمات التي تعد مرادفة أو - على الأصح – مقاربة لها ، مثل : (تستأذنوا) التي فسرها بها جمع من المفسرين .

"قال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا." [٢]

وقال الألوسي :"{ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا } أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها "[٣]

وقال مجاهد: "{ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا} قال: تنحنحوا -أو تَنَخَّموا." [٤]

غير أن مقارنة سريعة بين الدلالة المعجمية لكلتا الكلمتين (تستأنسوا – تستأذنوا) - أو الكلمات الأخرى التي فسرت بها الكلمة باعتبارها من لوازم الاستئناس -تبين لنا فضل الكلمة المختارة في الآية الكريمة على ما دونها .

قال الزمخشريّ :"{ تَسْتَأْنِسُوا} فيه وجهان :

أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٣] وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأنّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن . فوضع موضع الإذن .

والثاني : أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف : استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا؟ ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحداً ، واستأنست فلم أر أحداً ، أي : تعرفت واستعلمت ..

وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه : قلنا : يا رسول الله ، ما الاستئناس؟ قال : " يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح : يؤذن أهل البيت . والتسليم أن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ ثلاث مرات؛ فإن أذن له وإلاّ رجع "[٥]

ويتبين لنا من خلال ما ذكر أن الكلمة تحمل ظلالا كثيرة ،وأنها لا يعوض عنها بكلمة واحدة بل بمجموع كلمات عديدة فهي تحمل معنى الاستئذان والاستعلام والاستكشاف وذلك يحصل بوجوه كالتنحنح والتكبير أو مطلق الذكر والسلام على أهل البيت ونحو ذلك مما يحصل به الأنس وزوال الوحشة بالاطمئنان إلى أن زيارته لأهل هذا البيت مرغوب فيها في ذلك الوقت ، وأنها تحقق الأنس والائتناس بين الطرفين (الزائر والمزور) وإلا فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور:٢٨]

ومعلوم أنه إذا التزم ألا يدخل حتى يستأنس لم يعرض نفسه لأن يقال له ارجع .

" إن الاستئناس في الآية الكريمة ليس مجرد الاستئذان كما وهم الذين فسروه ، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله ، ولا يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلا : (استأنس الشرطيُّ ، أو جابي الضرائب ، أو الدائن) إنما هو الاستئذان ، ليس منه حسُّ إيناس ، كما لا يسوغ استعمال (أنس) في رؤية عدو أو نار حريق ، أو سماع هزيم رعد ، وزئير وحش .) (٦)

ومن ذلك الفرق بين الإيمان والتصديق :

وذلك كما في إيثار كلمة مؤمن على نظائرها مثل موقن ومصدق ونحوهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:١٧] ؛حيث تفيد من المعنى ما لا تفيده لو قال : (بمصدِّق لنا ولو كنا صادقين) ، وذلك لأن قوله : (بِمُؤْمِنٍ لَنَا) ، أي : لست مصدِّقًا لنا تصديق يقين واطمئنان وركون لما نقول حتى لو علمتَ أن كلامنا يوافق الواقع ، فلو أنه جاء بلفظة (بمصدِّق) بدل لفظة (بمؤمن)؛ لذهب هذا المعنى ، مع أن اللفظتين تشتركان في معنى التصديق.

فمن ثم نلاحظ أن المعنى هنا يتركب من عدَّة أجزاء هي مفردات الدلالة الكليَّة لهذه الكلمة ؛ ومن ثم فإن دلالة هذه الكلمة (مؤمن) تتركب من هذه المفردات :[مصدِّق – موقن - مطمئن – راكن] فليس إذا ثمة تعدد حقيقي للمعنى ؛ إذ إن معنى الكلمة لا يصدق على كلِّ واحد من هذه المفردات ؛ بل لا يصدق إلا على مجموعها ، أي : يصدق عليها مجتمعة لا منفردة .

ومن ثم فإن ما يبدو من مثل هذا النوع على أنه من تعدد المعنى ليس تعددا في الحقيقة ، وإنما هذه المفردات المذكورة إنما هي أجزاء المعنى

المتركب من تلك الأجزاء ؛ فلأجل ذلك سميته باتساع المعنى أو بالتعدد الشكليّ في مقابل التعدد الحقيقي .

ومن ذلك كلمة العرف ونظائرها من الحق والخير والخلق الحسن وكريم الخصال ...الخ.

قوله تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

فكلمة (العرف) مثلا هي من جوامع الكلم التي لا نستطيع أن نفاضل بينها وبين غيرها من الكلم ، ولا نجد كلمة تسد مسدها في عموم معانيها ؛ وذلك لأنها تتواطأ وتتوارد على كثير من المعاني ؛ فهي من المتواطئ الذي يحمل على العديد من المعاني ؛ ولذا قال أبو جعفر بعد تعداد طائفة من تفسير العلماء لبعض ما تشتمل عليه من المعاني:

" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بالعرف - وهو المعروف في كلام العرب- مصدر في معنى: "المعروف".

يقال: "أوليته عُرْفًا، وعارفًا، وعارفةً" كل ذلك بمعنى: "المعروف".

فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض. " (٧)

ومن ذلك الفارق بين : الضَعف والضُعف والوهن والاستكانة :

يقول أبو هلال العسكري في الفروق :

" ٣١٦- الفرق بين الضعف والضعف: أن الضعف بالضم يكون في الجسد خاصة وهو من قوله تعالى ﴿ خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم:٥٤] والضعف بالفتح يكون في الجسد والرأي والعقل يقال في رأيه ضعف ولا يقال فيه ضعف كما يقال في جسمه ضعف وضعف.

٣١٧ - الفرق بين الضعف والوهن: أن الضعف ضد القوة وهو من فعل الله تعالى كما أن القوة من فعل الله تقول خلقه الله ضعيفا أو خلقه قويا، وفي القرآن ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء:٢٨] والوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف تقول وهن في الأمر يهن وهنا وهو واهن إذا أخذ فيه أخذ الضعيف، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عمران:١٣٩] أي لا تفعلوا أفعال الضعفاء وأنتم أقوياء على ما تطلبونه بتذليل الله إياه لكم، ويدل على صحة ما قلنا أنه لا يقال خلقه الله واهنا كما يقال خلقه الله ضعيفا، وقد يستعمل الضعف مكان الوهن مجازا في مثل قوله تعالى ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٤٦] أي لم يفعلوا فعل الضعيف، ويجوز أن يقال إن الوهن هو انكسار الحد والخوف ونحوه، والضعف نقصان القوة.

وأما الاستكانة فقيل هي إظهار الضعف قال الله تعالى ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ أي لم يضعفوا بنقصان القوة ولا استكانوا بإظهار الضعف عند المقاومة، قال الخليل:إن الوهن : الضعف في العمل والأمر وكذلك في العظم ونحوه"(٨)

ومن خلال ما سبق نقله عن أبي هلال نتبين أن الضعف يكون في الجسد والعقل والرأي ، أما الضعف بالضم فلا يكون إلا في الجسد ، ومن هنا جاءت القراءات بالفتح والضم (خلقكم من ضعف) (وضُعف).

أما الوهن فيفهم من كلام أبي هلال في قوله يفعل فعل الضعيف وأنه انكسار الحد والخوف ونحوه ؛ فهذا يدلنا على أن الوهن إنما يراد به ضعف العزم لا ضعف الجسد ، فهو انكسار في النفس يتبعه ضعف في الهمة والعمل.

أما الاستكانة : فهي إظهار الضعف والركون إليه والميل إلى الدعة والتخاذل.

ومن ثم نستطيع أن ندرك الفروق بين هذه الألفاظ القرآنية في قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران:١٤٦]

كما نستطيع أن نفهم كذلك بلاغة القرآن في نظم هذه الألفاظ وترتيبها ؛ حيث بدأ بنفي الوهن وهو ما يرجع إلى ضعف النفس والعزيمة ، ويتسبب عنه الضعف عن العمل ، ثم أتبعه نفي الضعف وهو ضعف الجسد الظاهر عن العمل الناتج عن وهن العزائم ، ثم أتبعه نفي الاستكانة والمراد منه بيان قوة التحمل وعدم إظهار ما ألم بهم من أذى العدو مما يسبب ضعف قوتهم فتحاملوا على أنفسهم ولم يبدوا شيئا من أمارات الضعف أو الوهن ، ولا ركنوا لما نزل بهم من الهزيمة ولا رضوا به ولا استكانوا إليه ؛ بل أظهروا خلاف ذلك قوة وجلدا وصبرا في النزال والقتال ؛ فاستحقوا لذلك محبة الله والله يحب الصابرين.

ومن ذلك أيضا : سبل – فجاج :

قال تعالى : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٥- ١٦]

وقال أيضا ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣١]

وقال أيضا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّخرُف:١٠]

وقال أيضا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٩- ٢٠]

وقال أيضا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

قوله : سُبُلاً تدل على كل سبيل متخلل في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي أسلك فيها سبلاً ، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض ، أي داخلة فيها ، أي متخللة . وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض .

والمراد بالسبل : كلّ سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال ، أو كان من أثر فعل النّاس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابعُ الناس السير فيها ".(٩)

قال القرطبي :"السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين." (١٠)

قال الزمخشري في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء:٣١] [فجاجاً] الفج : الطريق الواسع . فإن قلت : في الفجاج معنى الوصف ، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى : ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح : ٢٠] قلت : لم تقدّم وهي صفة ، ولكن جعلت حالاً كقوله :

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلٌ قَدِيم ... فإن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت : أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة . والثاني : بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة ، فهو بيان لما أبهم ثمة "(١١).

ومن خلال ما سبق نتبين أن السبل وهي جمع سبيل هي طريق ممتد ممهد وهو مظنة اهتداء السالك له إلى حيث يقصد إذا قصد إلى سواء السبيل ولم يتعوج يمينا وشمالا ، وهي حيث وردت مفردة في القرآن وردت في سياق مظنة الهدى فهي كثيرا ما تضاف إلى الله تعالى في القرآن فيقال : سبيل الله .

ويرشح لما قلنا ويؤكده اقترانها بالهداية في المواضع السابقة كما في الآيات الثلاثة الأولى.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل:١٦]

﴿فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء:٣١]

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّخرُف:١٠].

فالآيات الثلاثة الأولى ترشح إلى أن السبيل حينما يتعين للشخص يكون مظنة الاهتداء ، ولا يكون الضلال إلا حينما يقف على عدة سبل متحيرا أيها يسلك ، أو يسلك هذه تارة وتلك تارة أخرى، ولذا أمر الله تعالى في سورة الأنعام باتباع سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم ، ونهى عن اتباع السبل المتفرقة ؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]

فالآيات الثلاثة الأولى تعطي مظنة الاهتداء بها ، والآيتان بعدها تعطيان مظنة تهيئتها لسلوك الناس عليها وانتفاعهم واهتدائهم بها ، ويفهم ذلك من قوله :

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾
[نوح: ١٩- ٢٠]

وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه:٥٣]

فامتنانه تعالى بأنه قد سلك في الأرض هذه السبل يشير إلى تمهيده إياها وتهيئتها لانتفاع الناس بها.

أما الفجاج ، فهي وإن اشتركت مع السبل في معنى الطريق فإنها تختص بها بسمة الاتساع ؛ ومن ثم يختص السبيل بالتمهد والاستواء ، وتختص الفجاج بالاتساع.

وبهذا تجتمع المعاني ، وتظهر النكتة في تقديم السبل تارة في مقام دعوة نوح قومه ممتنا عليهم بنعمة تمهيدها وتهيئتها حتى صارت كالبساط لهم ؛ فحيث ذكر وصف الأرض بالبساط الدال على تمام التمهد أتبعه بذكر السبل التي تكون ممهدة مهيئة، ثم أتبع ذلك بنعمة كونها فجاجا متسعة من باب التتميم للنعم.

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء:٣١]

فقدم الفجاج وهي من صفة الأرض ؛حيث السياق هنا سياق بيان عجائب الخلق ،وما أودع في الأرض من الجبال الرواسي والفجاج الواسعة وغير ذلك ؛ ، ثم أتبع ذلك بنعمة كونها سبلا ممهدة يهتدى بها من باب التتميم للنعم.

والذي يراجع سياق السورة يتبين له ذلك (١٢).

- اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي :

الاشتراك بين الألفاظ واقع في لغة العرب بما لا ينكره من له أدنى اطلاع على لغتهم ، وذلك كما في لفظ (العين – الجون – الشفق – القرء - عسعس ...الخ)

"وإذا عرف وقوع الاشتراك لغة فهو أيضاً واقع في كلام الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: "والليل إذا عسعس " (التكوير:١٧) فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره وهما ضدان هكذا ذكره صاحب الصحاح.

وقد يؤتى باللفظ المشترك لغرض بلاغي أو نكتة جمالية

فمن ذلك كلمة (عسعس) ، و(قسورة) ، و(ريع) ،و (آية)...إلخ ونحو ذلك.

•فكلمة (عسعس) في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير:١٧] تأتي بمعنى الإقبال والإدبار ، "عن مجاهد قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾قال: إقباله، ويقال: إدباره"[١٣].

و لا شك أن كلا من إقبال الليل وإدباره ساعتان شريفتان ، وآيتان عظيمتان دالتان على قدرة الله تعالى ؛ فلذا فقد أقسم الله بهما تنويها بشأنهما ، وتعظيم النبي- صلى الله عليه وسلم - لهاتين الساعتين بالذكر والصلاة والتسبيح ثابت بنصوص كثيرة ليس هنا محل ذكرها ؛ لذا فلا يبعد أن يراد بالقسم كلا من هاتين الساعتين الشريفتين ، وسياق الكلام يساعده ولا يعارضه.

- وكذلك لفظ (قسورة) في قوله تعالى : ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ٥١﴾ [المدَّثر:٥١]

ذكر ابن جرير الاختلاف فيها ؛ فمنهم من قال: الرماة ومنهم من قال هو الأسد[١٤].

والسياق لا ينفي أحد المعنيين بل يحتملهما جميعا ؛ فالحمر بلا شك تفر من الرماة كما تفر من الأسد ؛ فقد أثبت لها الفرار من كل من يشمله اسم القسورة ، ويؤيد ذلك مجيء قسورة منكرة .

ولا شك أن ذلك مما يزداد به المعنى جمالا وقوة فهذه الحمر المضروبة مثلا للكافر المعرض تفر من كل من تعرض لها أشد الفرار ؛ إذ تستشعر فيه خطرا داهما عليها ؛ وكذلك هؤلاء الكافرون المعرضون يحسبون كل متعرض لهم بالدعوة إلى الله خطرا داهما ، وشرًّا محدقا ، وذلك لكون ما يأتي به من الهدى معارضا أهواءهم أتم المعارضة .

وسواء بدا ذلك الداعي لهم شديدا كالأسد ، أم تلطف لأخذهم للهداية - كما يتلطف الصائد الرامي لصيده – فإن ذلك كله لا يجدي معهم شيئا.

- ومن ذلك (كلمتي : ريع – آية) في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء:١٢٨]

عن مجاهد : " قال: "شرف ومنظر"...وعن قَتادة.. قال: "بكلّ طريق"(١٥).

فعلى ذلك فكلمة (ريع) من المشترك اللفظي ؛ إذ تعني الطريق أو الشرف وهو الموضع العالي أو المنظر ، ولا مانع من اجتماع تلك المعاني جميعا ؛ حيث لا يأباها السياق ، وهذه هي العادة في اتخاذ الآيات التي يتباهى بها أصحاب الحضارات ؛ إذ يتخيرون لها موضعا مستشرفا للأعين ، ذا منظر حسن ، في طريق الناس حتى تقع الأعين على تلك الآية التي يتباهون بها .

وكذلك كلمة { آيَةً } قيل :"أي: معلما بناء مشهورًا"

وقيل :"الآية هي الدلالة والعلامة"(١٦).

فعلى ذلك فهي من المشترك اللفظي كذلك ، والسياق محتمل لهذه المعاني جميعها ؛ فهم يتخذون ذلك الأثر لكي يكون دلالة على قوتهم ، وعلامة على حضارتهم ، أو على مدينتهم ؛ بحيث تعرف به وتعلم به وتشهر به ، فيجتمع فيه كلُّ هذه المعاني أنه معلم وبناء مشهور ودلالة وعلامة .

وفي هذا كلّه تأكيد لتلك السمة الأسلوبية من سمات إعجاز القرآن الكريم ، ألا وهي سمة الاتساع في المعاني بوسائل وطرق شتى .

- **اتساع الدلالة من خلال المتواطئ :**

يفرق الأصوليون بين المشترك والمتواطئ وذلك أن "اللفظ المشترك هو اللفظ الواحد الموضوع لعدة معان وضعًا أولا"[١٧].

أما المتواطئ: فهو لفظ يطلق على أشياء متغايرة ولكنها متفقة في المعنى الذي وضع اللفظ له مثل لفظ "لون" فالسواد لون، والبياض لون، والحمرة لون.

ومثل لفظ "رجل" التي تطلق على: زيد وعمرو ومحمد و...

ومثل لفظ "جسم" فهي تطلق على السماء والأرض، والإنسان، والحيوان، وعلى كل شيء له ثقل ويشغل حيز.

فقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ [الحديد: ١]

ورد فيه لفظ متواطئ يدل على العموم وهو لفظ "ما" فإنها تعني الإنسان، والملائكة والحيوان والجماد... فاللفظ المتواطئ من ألفاظ العموم.

فمِثَالُ المتواطئ مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر:٣٢]

فَمَعْلُومٌ أَنَّ كلَّ واحد من هذه الأقسام يتناول أصنافا كثيرة ، الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهِكَ لِلْمُحَرَّمَاتِ.

وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ.. (١٨)

وترجع قيمته الجمالية - في الغالب – إلى ما فيه من إيجاز بالإجمال المغني عن التفصيل بذكر أفراد ما أجمل لشيوع العلم بها .

فمن أمثلته أيضا قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢] قَدْ تَضَمَّنَ الأمْرَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذِكْرُنَا إِيَّاهُ عَلَى وُجُوهٍ .

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ أَقَاوِيلُ عَنْ السَّلَفِ ، قِيلَ فِيهِ : أُذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي " ، وَقِيلَ فِيهِ : " أُذْكُرُونِي بِالثَّنَاءِ بِالنِّعْمَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّنَاءِ بِالطَّاعَةِ " وَقِيلَ : أُذْكُرُونِي بِالشُّكْرِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ " وَقِيلَ فِيهِ : " أُذْكُرُونِي بِالدُّعَاءِ أَذْكُرْكُمْ بِالإِجَابَةِ " .

وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي ، وَجَمِيعُهَا مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى لِشُمُولِ اللَّفْظِ وَاحْتِمَالِهِ إِيَّاهُ." (١٩)

ولا شك أن استخدام لفظ الذكر ونحوه مجملا فيما يعرف تفصيله بالتفكر والتأمل - ولا يرتاب في معرفته – فيه من الإيجاز واختصار الكلام ما هو بأعلى المنازل من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا : "البلاغة الإيجاز ".

ونحوه ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ [التكوير:٧]

فقد ورد فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني عُمل بهن عملٌ مثل عملها ، فيحشر العامل بالخير مع العامل بالخير إلى الجنة ، ويحشر العامل بالشر مع العامل بالشر إلى النار ، قاله عطية العوفي : حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة .

الثاني : يزوج كل رجل نظيره من النساء فإن كان من أهل الجنة زوّج بامرأة من أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار زوّج بامرأة من أهل النار ، قاله عمر بن الخطاب ، ثم قرأ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات:٢٢].

الثالث : معناه ردّت الأرواح إلى الأجساد ، فزوجت بها أي صارت لها زوجاً ، قاله عكرمة والشعبي .

الرابع : أنه قرن كل غاو بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل خامساً : زوجت بأن أضيف إلى كل نفس جزاء عملها ، فصار لاختصاصها به كالتزويج." (٢٠)

وهذه المعاني كلها تنتسب إلى الكلمة بنسبة واحدة ؛ إذ إن كلّ ذلك يعد تزويجا ؛ فهي إذا من المتواطئ ، وحمل الكلمة على كل هذه المعاني لا يأباه السياق بل يؤيده ويقويه ، والكلمة بهذه المعاني كشجرة ذات ظلال وأغصان وارفة كلها تمت إليها بصلة ونسبة واحدة .

- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز :

من الوجوه التي تتعدد بها الدلالة وتتسع تردد الكلمة بين الحمل على الحقيقة والمجاز ؛ وذلك قد يؤتى به لإرادة الحمل على كلا المعنيين الحقيقي والمجازي طلبا للاتساع في المعنى إذا ما اقتضاه السياق .

وأمثلته عديدة في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

كلمة : الثياب في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر: ٤].

من المفسرين من حملها على الحقيقة ومنهم من حملها على المجاز ، ومنهم من جوز الجمع بينهما :

فقد رجح أبو حيان الحقيقة رغم حكايته للأقوال المرجحة للمجاز[٢١]

واختار أبو حيان أن "الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي"[٢٢]

ومال الألوسي إلى المجاز فقال:" ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر: ٤] تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذم به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه....

وكلمات جمهور السلف دائرة على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة.

وقيل كني بها عن الجسم كما في قول ليلى وقد ذكرت إبلاً ركبها قوم وذهبوا بها :

رموها بأثواب خفاف فلا لها شبهاً إلا النعام المنفرا

وطهارة الجسم قد يراد بها أيضاً نحو ما تقدم . ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة مما لا غبار عليه.

وقيل على كون تطهير الثياب كناية عما مر يكون ذلك أمراً باستكمال القوة العملية بعد الأمر باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه ،وقيل إنه أمر له بالتخلق بالأخلاق الحسنة .... وقيل الثياب كناية عن النساء "[٢٣]

ومع ميل الألوسي للمجاز فإن ظاهر كلامه في الآية التالية عدم استبعاد الحقيقة وكأنه يجوز الجمع بينهما قال :"والرجز فاهجر كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل اهجر الجفاء والسفه وكل شيء يقبح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدَّثر:٤]

حيث حمل ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ على تطهير الظاهر ، ولا شك أن أول ما يدخل فيه تطهير الثياب .

أما ابن كثير فقد حكى الأقوال السابقة ثم رجح الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فذكر من ذهب إلى المجاز كقول القائل :" لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فَـإني بحمـد الله لا ثـوبَ لبستُ ولا من غَدْرَة أَتَقَنَّعُ

وقال الشاعر :

إذا المـرءُ لـم يَـدْنَس مـنَ فَكُـلّ ردَاء يَرْتَديـه جَميـلُ

وقال العوفي ، عن ابن عباس: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ يعني لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية...

ثم ذكر قول من ذهب إلى الحقيقة فقال :

"وقال محمد بن سيرين: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ أي: اغسلها بالماء.

وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه.

وهذا القول اختاره ابن جرير.

ثم قال :"وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس:

أفاطمَ مَهلا بعض هَذا التَدَلُّل وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْري فـاجملي

وَإن تَكُ قَد سـاءتك مني خَليقَةٌ فَسُلّي ثِيَابي مِن ثيابك تَنْسُلِ

وقال سعيد بن جبير: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } وقلبك ونيتك فطهر.

والذي نراه أن السياق في هذه السورة الكريمة لا يأبى الجمع بين المعاني المذكورة في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازا ؛وذلك لأن الداعي إلى الله ؛ بله أكرم الرسل ينبغي أن يجتمع له صلاح الظاهر والباطن المشتمل على حسن المظهر والمخبر ، فيجمع بين حسن السمت المشتمل على أكمل الهيآت التي ترغب في الإقبال عليه وتحول دون النفرة منه ، مع صلاح الباطن واستقامة الخلق بحيث لا يعثر له على هفوة تكون حجة عليه وعلى دعوته .

ومجيء هذه الكلمة في هذا الموضع محتملة لكل ما ذكر مما يقتضيه السياق ويتسع له هو أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز ، وكونه من لدن حكيم حميد .

ومن ذلك قوله تعالى "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى" [البقرة:١٩٧]

حيث جعل الزاد جنسا يشمل كلا النوعين الحقيقي الحسي المعهود ، أو المجازي المعنوي وهو تقوى الله تعالى ؛ فحمل الزاد على معنييه الحقيقي والمجازي لما في ذلك من اتساع في المعنى يقتضيه السياق والمقام ؛ فإن المقصود هو الاعتدال في الجمع بين الدنيا والآخرة .

- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.

ذهب ابن كثير كذلك في أكثر من موضع إلى جواز الجمع بين المعنى اللغوي العام والمعنى الشرعي الخاص ما دام السياق محتملا لهما ، وذلك كما في قوله تعالي : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون:٤] قال:"الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال (أي : المعنى الشرعي)، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية:

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا (المعنى اللغوي العام) وهو: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩- ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلَت:٦- ٧]، على أحد القولين في تفسيرها."

فقد حكى أقوال المفسرين هنا في معنى الزكاة ، وهي لا تخرج عن معنيين:

- **المعنى الشرعي :** وهو الزكاة الشرعية (بمعنى إخراج قدر محدود من المال إلى مستحقيها بشروطها)، وهي إما المفروضة على القول المرجوح ؛ لعدم فرضيتها في زمان نزول النص ، وإما بمعنى الصدقة وقد كانت مشروعة آن ذاك .

- **المعنى اللغوي :** وهو يرجع في أصله إلى معان منها الطهر والنماء والصلاح ، فكأن المقصود هنا هو تطهير النفس وإصلاحها وتنمية جوانب الخير فيها ، على نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى:١٤]. وقوله تعالى :﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩]

وبعد حكايته للقولين الواردين في هذا الموضع قرر مذهبه في جواز الجمع بين كلا المعنيين اللغوي والشرعي بشرط احتمال السياق لهما فقال :

"وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.(الأعلى:١٤)

وقد حكى نحو هذين القولين في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ [فُصِّلَت: ٩- ٧]

والذي ذهب إليه ابن كثير في هذا الموضع من جواز الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي لا غبار عليه ؛ إذ السياق يؤيده لاحتماله كلا المعنيين ؛ وذلك لأن السياق سياق ذكر لجملة من الخصال الحميدة التي اتصف بها المؤمنون ، واستحقوا بها المدح والثناء من الله تعالى، ووعدهم عليها بالفلاح في مطلع تعداد تلك الصفات حيث بدأ الله تعالى السياق بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١].

ولا شك أن كلا الصفتين هما من صفات المؤمنين اللتين لا يتحقق فلاحهم إلا بهما ؛ بل إن المتأمل لهاتين الصفتين يلحظ تكاملهما وترابطهما بحيث لا يتصور إحداهما دون الأخرى ؛ وإلا فكيف يتصف بزكاة النفس وصلاحها وطهرها من قسا قلبه فلا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وكيف يرق القلب لإنفاق المال وبذله للغير دون مقابل دنيوي ما لم يكن قلبا زاكيا صالحا ؟!

ولذا فقد ذم الله تعالى المشركين في الآية الأخرى وتوعدهم بالويل بسبب أنهم ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وقد سوغ ابن كثير حملها على المعنيين كذلك ، وهو صحيح لما ذكرناه ؛ فإذا كان المعنيان المذكوران هما سبب فلاح المؤمنين فلا جرم يكونان سبب خسران المشركين والكافرين كذلك ،

وقد جمع الله تعالى في وصفهم بين هاتين الصفتين (زكاة النفس وبذل الصدقة) وبين ترابطهما فقال : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١- ٣].

ومما يستشهد به في هذا المقام كذلك لجواز الحمل على المعنيين اللغوي والشرعي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:١١٠]

فقد أورد ابن جرير الأقوال في معنى الآية وحاصلها :

- قسم حمل الصلاة على المعنى اللغوي وهو الدعاء.
- وقسم حملها على المعنى الشرعي المعروف بما تشتمل عليه من قراءة وذكر
- وقسم حملها على بعض أجزاء المعنى الشرعي وهو القراءة ؛ فكأنه جعلها من المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية [٢٤]

فمما أورده ابن جرير من أقوال السلف في تفسيرها ما ورد "عن عطاء ، قال: يقول ناس إنها في الصلاة، ويقول آخرون إنها في الدعاء." [٢٥]

وبعد استقصائه جميع الأقوال فسرها بقوله :" ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾

فنلاحظ أن ابن جرير قد سلك منهجا صائبا حيث احتكم إلى دلالة السياق فرأى أن السياق لا يأبى شيئا من الأقوال الآنفة فجمع بينها جميعا في عبارته السابقة .

ملخص الوحدة

عرضت هذه الوحدة لبلاغة القرآن الكريم في استعمال الألفاظ المفردة ذات الدلالات الثرة الواسعة التي تناسب سياقها ومقامها أتم المناسبة ؛ بحيث لا تقوم لفظة مقامها مما يكشف عن إعجاز هذا الكتاب الخالد.

وقد عرضت لذلك من خلال النقاط التالية :

- تمهيد عن بلاغة اللفظ القرآني
- بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق والمقام.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المشترك اللفظي
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال المتواطئ
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي.

الهوامش

(١) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٢)

(٢) انظر تفسير الطبري للآية

(٣) تفسير الألوسي ١٣/٣٩٥

(٤) انظر تفسير الطبري للآية

(٥) تفسير الكشاف ٤/٣٩٦

(٦) الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص ٢٠١

(٧) تفسير الطبري - جامع البيان ت شاكر (١٣/ ٣٣١)

(٨) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٣٣٠

(٩) التحرير والتنوير (ج ٩ / ص ٥٤)

(١٠) تفسير القرطبي - (ج ١٨ / ص ٣٠٦)

(١١) الكشاف - (ج ٤ / ص ٢١٨)

(١٢) قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠- ٣٤]

(١٣) انظر تفسير الطبري للآية

(١٤) انظر تفسير الطبري للآية

(١٥) انظر تفسير الطبري للآية

(١٦) انظر تفسير الطبري للآية

(١٧) انظر المحصول للرازي:٣٥٩

(١٨) انظر : مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية :٣٢-٣٣ بتصرف

(١٩) السابق

(٢٠) النكت والعيون ٣/٤٨٨-٤٨٩

(٢١) البحر المحيط ٣٧٨/١٠

(٢٢) السابق

(٢٣) تفسير الألوسي ٣٩٩/٢١

(٢٤) انظر تفسير الطبري للآية

(٢٥) انظر تفسير الطبري للآية

(٢٦) انظر تفسير الطبري للآية

(٢٧) تفسير الألوسي ٣٩٥/١٣

(٢٨) انظر تفسير الطبري للآية

(٢٩) تفسير الكشاف ٣٩٦/٤

(٣٠) الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص ٢٠١

(٣١) تفسير الطبري - جامع البيان ت شاكر (٣٣١/١٣)

الوحدة الثانية

التنويع الأسلوبي

الأهداف:

أ .تعريف الدارس بظاهرة التنويع الأسلوبي، والمصطلحات التي أطلقها البلاغيون القدماء عليها.

ب . إيقاف الدارس على مجالات تحقق هذه الظاهرة في القرآن.

ج . تقوية الحس البلاغي للدارس بتحليل العديد من الآيات التي وظفت فيها هذه الظاهرة، ومدى بلاغتها.

العناصر:

- التعريف بظاهرة التنويع الأسلوبي، وعرض أهم المصطلحات التي أطلقها البلاغيون القدماء عليها.

- عرض مجالات تحقق هذه الظاهرة في القرآن الكريم، وهي: مجال الصيغ - مجال العدد - مجال الضمائر - مجال الأدوات - مجال البناء النحوي.

- تحليل عدد من الآيات من خلال تلك المجالات، والوقوف على سر التنويع الأسلوبي فيها.

التنويع الأسلوبي

التعريف بظاهرة التنويع الأسلوبي :

تعد هذه الظاهرة من أهم وأكثر الظواهر البارزة في بلاغة النظم القرآني.

ويقصد بالتنويع الأسلوبي: أن تتنوع اختيارات المبدع بين البدائل اللغوية المشتركة في أداء أصل المعنى طلبا للتعبير الأكثر ملاءمة للسياق والمقام.ولننظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (الملك: ١٩).نجد أن لفظتى (**صافات - ويقبضن**) يمكن أن يعبر عن الحديث فيهما وهو أصل المعنى بأكثر من طريقة مثل : (صافات قابضات) أو (يصففن ويقبضن)فالنمط الأول : (صافات قابضات) تكرر فيه اسم الفاعل.والنمط الثاني : (يصففن ويقبضن) تكرر فيه الفعل المضارع.وأي من النمطين جاء على أسلوب واحد هو صيغة اسم الفاعل في الأول ، وصيغة الفعل المضارع في الثاني دون تنويع في الأسلوب.

ولكن الآية قد اختارت اسم الفاعل الدال على الثبات للتعبير عن الحدث فى اللفظة الأولى واختارت الفعل المضارع الدال على الحدوث والتجدد للتعبير عن الحدث فى اللفظة الثانية، وما ذلك إلا رعاية للمعنى الفنى الدقيق الذى أرادت الآية أن ترمز إليه وتدل عليه.

قال الزمخشرى: "فإن قلت: لم قيل (**ويقبضن، ولم يقل قابضات**) (**قلت**) لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به (أي الاستعانة) على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح"[1].

فكأن الآية قد رمزت بذلك - فضلا عن إثبات حدثي الصف والقبض - إلى أن الصف هو غالب فعل الطير فى جو السماء وأن القبض يكون عارضا، وهذا المعنى وإن لم يكن مقصودا بالأصالة من الكلام، فإن اختيار الآية لهاتين الصيغتين قد شمل هاتين الدلالتين دون أن يزيد فى لفظ الكلام بل عبر عن المعنى بهيئة اللفظ نفسه وليس بلفظ آخر، ولو خولفت تلك الصياغة، وأريد التعبير عن تلك المعانى، لقيل (**يصففن غالبا ويقبضن أحيانا**) وفيه من الركاكة والتطويل ما فيه، فضلا عن أن المعنى الذي أضافته هاتان الصيغتان في الآية ليس مقصودا من الكلام بالأصالة؛ وإنما هو متمم لبيان القدرة وتمام الحكمة، فكان تضمينه فى هيئة الكلمة وبنيتها أولى من الإتيان بلفظ جديد يخصه.

والمقصد هنا أن نبين أن أصل المعنى يمكن الدلالة عليه بأكثر من صيغة. فأصل المعنى فى الآية لفت الأنظار إلى قدرة الله فى حفظ الطير وتسخيره فى جو السماء فى حالتى القبض والبسط، وهذا يحصل بالتعبير باسم الفاعل أو المضارع لكن الآية قد اختارت للمعنى الأول اسم الفاعل، وللثانى صيغة المضارع من باب التنويع الأسلوبي للدلالة على معنى أخص وأدق من أصل المعنى وهو مجرد التعبير عن الصف والقبض.

التنويع الأسلوبي بين الموروث البلاغي والأسلوبية الحديثة:

استخدمت لهذه الظاهرة في تراثنا البلاغي عدة مصطلحات لا تكاد تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الأسلوبية الحديثة نحو : (الاختيار – العدول – الالتفات – شجاعة العربية – مخالفة مقتضى الظاهر ..الخ) وعرفت في الأسلوبية الحديثة بمصطلحات مقاربة لتلك نحو: (الاختيار - الانحراف – الانزياح – العدول - المجاوزة ..الخ)وهذا ما تكشف

عنه تعريفات الأسلوبيين للأسلوب ؛ حيث عرفه بعضهم بأنه اختيار ، وبعضهم بأنه انحراف ..الخ"[٢]

وتتسم هذه الظاهرة بتنوع مجالاتها بين الصيغ الصرفية والأعداد والضمائر والأدوات والبناء النحوي على نحو ما نرى في الصفحات التالية

أولا : التنويع الأسلوبي في مجال الصيغ:

التنويع بين اسم الفاعل والمضارع :

فمن ذلك ما علق به عبد القاهر على قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر:٣).

فلو قيل "هل من خالق غير الله رازق لكم" لكان المعنى غير ما أريد[٣] وذلك أن المقصود فى الآية تقرير العباد برزق الله تعالى لهم، ويمكن أداء ذلك المعنى الأصلى باسم الفاعل "رازق" أو بالمضارع "يرزق" أو غير ذلك، إلا أن فى التعبير بالمضارع (يرزق) من الدلالة على تجدد الرزق وحصوله للعباد كل وقت، ووجدانهم إياه بعد حاجة إليه وافتقار - فيه من دقة المعنى ولطفه مالا يفيده التعبير باسم الفاعل.

التنويع بين صيغة الماضي وصيغة اسم الفاعل:

من مواضع العدول إلى اسم الفاعل فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ (البقرة:١٤٥) حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبىﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفيا لينفى عن النبىﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتى للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال فى انتساب النبى ﷺ لمتابعة الكتاب ، وذلك على نحو ما جاء فى

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ (٤) ولذا قال الألوسـى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ أى لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون" وقال الزمخشرى" وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم(٥) هذا فضلا عن أن الإخبار باسم الفاعل فى هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيدا ومبالغة فى النفى المؤكد بالباء(٦).

وقد استشف صاحب الظلال تلك المعانى السابقة جميعا فعبر عنها فى عبارة واحدة فقال: "وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه هذا الأمر(٧).

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفى الحاسم لتيئيس أهل الكتاب من أطماعهم فى اتباع النبى ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم فى دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبى ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

التنويع الأسلوبي بين الاسم وفعل الأمر:

عرض ابن الأثير أمثلة هذا النوع من التنويع:" كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ (الأعراف: ٢٩) وكان تقدير الكلام: أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قالﷺ "الأعمال بالنيات"(٨).

التنويع الأسلوبي بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة:

ومن أمثلة ذلك ما ورد فى سورة الشعراء فى قصة موسى على لسان فرعون: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم

بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الشعراء: ٣٤-٣٧)

حيث جاء التعبير بصيغة المبالغة سحّار فى هذا الموضع دالا على مقابلة الملأ وصف فرعون لموسى بالسحر وتأكيده على أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم (**بسحره**) فناسب ذلك أن يقابلوا ذلك بالوصية بالإتيان بكل سحار عليم يفوق سحره سحر موسى.

وتتضح هذه النكتة حينما نقف على سياق القصة المشابه فى سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى على لسان الملأ من قوم فرعون: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٠٩-١١٢).

وقد علل بعضهم مجيء صيغة المبالغة فى الشعراء دون الأعراف بأن المبالغة فى الشعراء مناسبة لقول فرعون ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [٩].

ولكن يضعف من هذا التعليل أن الملأ قد وصف موسى كذلك فى الشعراء بأنه (**ساحر عليم**) وأرى أنه لم تأت المبالغة (**سحار**) فى سورة الأعراف؛ لأنه لم ينص على أن المحذور - وهو إخراج موسى لهم من أرضهم - إنما يقع (**بسحره**) فلم تذكر هذه الكلمة فى سورة الأعراف، ومن ثم لم تقابل بصيغة المبالغة (**سحار**) فى وصف السحرة، فكأن الملأ فى هذا الموضع لم يتصور أن ما جاء به موسى - وهو ما وصفوه بكونه سحرا - يكون له من القوة والتأثير أن يخرجهم من أرضهم، فمن ثم لا يحتاج إبطال سحره إلى الإتيان بمهرة السحرة. أما فى سورة الشعراء فإن الكلام فيها على لسان فرعون - لا الملأ - وهو يؤكد لهم أن معجزة موسى - عليه السلام - والتى سماها فرعون سحرا - تبلغ من القوة

والتأثير أن يخرجهم موسى من أرضهم بها.ومن ثم بالغوا له فى وصف السحرة الذين يؤتى بهم لإبطال معجزة موسى عليه السلام.ويمكن أن يقال إنه لما كان الواصف لموسى عليه السلام فى هذا الموضع بالسحر هو فرعون؛ لذا "جاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه، وليسكنوا بعض قلقه"(١٠).

التنويع في صيغ المصدر: بين(الحياة - الحيوان)

فمن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ (العنكبوت: ٦٤).

حيث جاء اختيار المصدر (**الحياة**) للتعبير عن الحياة فى الدنيا ،وجاء اختيار المصدر (**الحَيَوَانُ**) **على** صيغة (**الفعلان**) للتعبير عن الحياة فى الدار الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وابتهاج وخفة النفس واهتزازها مع دوام ذلك واستمراره وتجدد ألوانه، وذلك فى مقابل الحياة الدنيا - حياة اللهو واللعب - بما تشتمل عليه من انكسار وسأم من رتابة صور الحياة وتكرارها بلا تجدد، مع سرعة انقطاع لذاتها، وزوال نعيمها، وتحول عافيتها.

ولذا قال الزمخشرى "وفى بناء الحيوان زيادة معنى ليس فى بناء الحياة وهى ما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيؤه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة فى هذا الموضع المقتضى للمبالغة(١١).

التنويع بين المصدر واسم المرة :

وذلك كما فى قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ (الأعراف :٦٠-٦١) ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك العدول فى الآية عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة).

وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملأ من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السّلام بالضلال اتهاما مؤكدا بإن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له فى ضلال مبين بما يفيده لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (فى) من معنى الإحاطة والانغماس فى الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح فى نفى هذا الاتهام مسلكا آكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعها نكرة فى سياق النفى لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفى أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بى شيء من الضلال) [١٢] أو (ليس بى نوع من الضلال البتة، فكان هذا أبلغ فى عموم السلب) [١٣] وذلك لأن اسم المرة لا يدل إلا على الفعلة الواحدة ونفى الأدنى من نفى الأكثر[١٤] (فيرجع حاصل المعنى ليس بى أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين) [١٥]، ولذا قال الطيبى: (أى ضلالة نزرة) [١٦] ومن ثم أفاد اسم المرة نفى أى نوع من أنواع الضلال، أو نفى أقل القليل منه وهو الأرجح؛ لأن اسم المرة وقع نكرة فى سياق النفى فيعم أدنى وحدة من وحداته الدنيا.

التنويع الأسلوبي بين صيغة (فعل - افتعل)

يأتى التعبير بصيغة افتعل لأغراض ومعان فنية، منها من ذلك ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) حيث نلحظ أن الآية اختارت **(كسبت)** على وزن **(فعل)** فى الدلالة على فعل الخير، بينما آثرت**(اكتسبت)** على **(كسبت)** فى الدلالة على فعل الشر، فاختارت صيغة افتعل عل صيغة (فعل) وهذه الصيغة افتعل تأتى لعدة معان، منها مما يناسب السياق: الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة فى معنى الفعل[١٧].

قال سيبويه "وأما كسب فإنه يقول أصاب، وأما اكتسب فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب"[١٨] ومن ثم فقد عدلت الآية فى التعبير عن الشر إلى الاكتساب للدلالة على التكلف والاجتهاد والتعمل والاضطراب والتصرف لأجل تحصيل المعصية ويناسب ذلك ما فى المعصية من مخالفة للأعراف والفِطَر السليمة، مما يدعو العاصى إلى الاحتيال فيها. قال جماعة من العلماء" افتعل يدل على شدة الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه"[١٩] وقال الزمخشرى" فإن قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب قلت فى الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجُعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن فى باب الخير كذلك وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال[٢٠].

فالتفت الزمخشرى هنا إلى ما تدل عليه الصيغة من المبالغة فى الفعل ومناسبة ذلك لغلبة الشر على الطباع، واجتهاد الإنسان فيما فيه هواه، ومضيه قدما فى سبيل الفجور، كما قال تعالى **﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾** (القيامة:٥) قال الطبرى" يريد أن يمضى أمامه قدما فى معاصى الله لا يثنيه عنها شيء"[٢١] وقال ابن عطية: وقوله تعالى: **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾**يريد من الحسنات**﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** يريد من السيئات، قاله السدى وجماعة من المفسرين لا خلاف فى ذلك والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان. وجاءت العبارة فى الحسنات بـ **(لها)** من حيث هى مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت فى

السيئات بـ (عليها) من حيث هى أوزار وأثقال ومتحملات صعبة... وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام. كما قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ (الطلاق: ١٧) هذا وجه.

والذى يظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطاه إليها فيحسن فى الآية مجيء التصريفين إحرازا لهذا المعنى[٢٢].

التنويع في الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضى :

وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ (فاطر:٩) فالأصل الذى يقتضيه السياق هنا هو (فأثارت) وعدل عنه لغرض بلاغى وعلى هذا ورد قول تأبط شرا:

بـأنى قـد لقيـت الغـول ... بـسهب كالـصحيفة

فأضـربها بـلا دهـش ... صـريعا لليديـن[٢٣]

فأصله: (فضربتها) .

وعليه ورد قوله تعالى أيضا ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج: ٣١-٣٢) فقال أولا:" خرّ من السماء" بلفظ الماضى، ثم عطف عليه المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح

به[٢٤]. وتقرير الأصل السياقى فيه (فخطفته الطير أو هوت به الريح) وهكذا فى سائر الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير.

ثانيا : التنويع الأسلوبي في مجال العدد:

التنويع بين صيغتي الإفراد والجمع :

من الأمثلة البليغة التى تحققت فيها المزاوجة بين صيغتى الإفراد والجمع: قول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ (النساء:١٣-١٤) فقد جمع "**خالدين**" فى وصف ثواب الطائعين، وأفرده فى وصف عقاب "**العاصين**"[٢٥] وهنا لا يكاد يشك صاحب الذوق الرفيع أن لإفراد العاصى هنا فيه من معانى الإذلال والتعذيب بالوحشة والانفراد ما فيه.

وقد التفت إلى هذا المعنى العلامة أبو السعود حيث قال "ولعل إيثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة[٢٦]".

وجدير بالذكر أن هذه المزاوجة المذكورة فى هذا الموضع هى طريقة القرآن ونهجه فى التعبير عن عذاب الكافر، ونعيم المتقين، حيث يطرد الإفراد بالنسبة للكافر والجمع بالنسبة للمؤمن للغرض نفسه، وهذا ما نلمحه فى المثال التالى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ (الدخان: ٤٣-٤٩) حيث نلمح فى هذه الآيات إفراد الأثيم فى مقابل جمع المتقين فى الآيات التالية فى المشهد التالى من السورة نفسها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي

جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الدخان: ٥١-٥٥) وهنا تؤدى صيغة الفرد دورها فى إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فوق عذاب الجحيم فى مقابل انتناس المؤمن بصحبته ورفاقه فى جنات النعيم، فنرى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف، وذلك النعيم المضاعف.وبهذا تؤدى صيغة المفرد فى مثل هذا السياق معنى الوحشة والوحدة ومعاناة ألم الغربة والافتراق.

العدول إلى المفرد

من الدلالات الفنية للعدول إلى المفرد ما جاء فى قوله تعالى فى سورة الجن﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن:٨-٩) فالحرس والرصد: اسما جمع، ومع ذلك وصف الحرس بالمفرد، وجاء الرصد وصفا لمفرد، قال الزمخشرى:" والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل شِداداً، والرصد مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعى جياعا يعنى يجد شهابا راصداً له ولأجله[٢٧].

وقال الطيبى" وقوله تعالى(شهابا رصدا) نزل الواحد وهو الموصوف منزلة الجمع لوصفه به إظهارا لكمال حفظه وقول الشاعر... "ومعى جياعا" جعل كل مكان من أمكنة المعا بمنزلة (معا) واحد مبالغة فى الجوع[٢٨].

وقد ذهب الزمخشرى وجماعة من المفسرين إلى أن السر فى العدول عن الجمع إلى المفرد فى وصف الحرس أن ذلك جاء رعاية للفظ دون

رعاية المعنى إذ لو روعى المعنى لقال شدادا[٢٩]. والسر فى هذا العدول - فى رأيى - يرجع إلى الرمز والإشارة إلى وحدة هذا الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأنهم حارس واحد، فليس ثمة اختلاف بينهم ولا تفرق، ومن ثم فأى شيطان يحاول استراق السمع توجهوا إليه جميعا فيضربونه ضربة ملك واحد.

وثمّة دلالة أخرى فى العدول إلى (شهاب) وهى التخصيص، حيث إن إفراد الشهاب يدل على أن كل جنى قد أعد له شهاب مختص به لا يعدوه. ويرشح لهذا المعنى لفظة (له)، ومن ثم أعرب بعضهم رصدا مفعولا لأجله.

من أمثلة العدول إلى المفرد كذلك فى القرآن الكريم توحيد النور وإفراده فى مقابل جمع الظلمات مما يمثل نوعا من العدول فى جميع مواضعه فى القرآن، حيث ورد النور مفرداً فى مقابل جمع الظلمات فى أحد عشر موضعا فى كتاب الله تعالى ولم يرد خلاف ذلك فى موضع واحد فمن ذلك ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (الأنعام:١) وقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم:١).

ففى هذه الأمثلة كلها جاءت الظلمات مجموعة ثم عدل عن هذا الجمع بإفراد النور، ويتجلى هذا العدول فى أوضح صوره فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ (فاطر: ١٩-٢٢) ففى هذا الموضع يتضح للقارىء والسامع مخالفة قاعدة السياق المطردة فى الجمع بين الصيغ المتناسقة إفرادا وجمعا، ومن ثم تبدو نعمة هذا العدول متميزة تنادى بالالتفات إلى

سر تلك المخالفة، وذلك العدول. ويسهل على المتدبر لهذا العدول معرفة سره والوقوف عليه، وهو وحدة سبيل النور والإيمان، وتشعب كل السبل دونه وتفرقها ومن ثم أفرد صراط الله المستقيم فى مقابل سبل الضلال، فى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام:١٥٣) قال أبو حيان" جمعت الظلمات لاختلاف الضلالات، ووحد النور لأن الإيمان واحد[٣٠].

" وقال الألوسى" أفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال"[٣١]

وقال ابن القيم" والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شىء موجود، ولا غاية لها توصل إليها، بل هى بمنزلة ثنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود. فهى وإن تنوعت فأصلها طريق واحد، لما كانت الظلمة بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هى أفرد النور وجمعت الظلمات[٣٢].

ويلمح الألوسى وجها فى إفراد النور وجمع الظلمات، وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، حيث ردد كلامه بين القول السابق" أو أن الأول(أى النور) إيماء إلى القلة والثانى (أى الظلمات) إلى الكثرة[٣٣].

وهذا الذى ذكره غير معارض للقول الأول فأتباع الحق قليلون كما يقرره كتاب الله تعالى فى مواضع عديدة.

ومن مواضع العدول إلى المفرد لتحقيق غرض بلاغى، ما جاء فى القرآن الكريم من إفراد لفظ النعمة فى سياقات عديدة، أريد التعبير فيها عن كثرة النعم؛ ومع ذلك فقد جاءت الصيغة مفردة فى تلك المواضع؛

حتى بلغ عددها سبعة وأربعين موضعا، ولم ترد مجموعة إلا في مواضع ثلاثة.

ومما يتعلق بذلك :

العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (النحل:١١٢) فعلى الرغم من كثرة نعم الله التى كفرت بها تلك القرية فقد عدلت الآية عن التعبير بجمع الكثرة(نعم) إلى جمع القلة(أنعم) لغرض بلاغى يكشف عنه العلامة أبو السعود حيث يقول"وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة" (٣٤)

هذا الذى نبه عليه العلامة أبو السعود هو ما يناسب مقام التخويف لهؤلاء الكافرين الجاحدين لنعم الله تعالى عليهم، ولهذه الطريقة نظائر فى كتاب الله تعالى فمنها فى غير جانب الصيغ قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو فى مقام تخويفه عذاب الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ (مريم:٤٥) حيث عبر بـ (يمسك) بدلا من يصيبك، وبـ(الرحمن) بدلا من (الجبار) كأنه يخوفه العذاب الأدنى لو عامله الله برحمته، فكيف لو عامله بشدته وجبروته. وعلى هذا النحو جاء التخويف فى الآية السابقة من جحد قليل النعم فضلا عن كثيرها، وهذا أشد مبالغة فى التخويف.

ويتعلق به كذلك :

العدول عن صيغة جمع القلة إلى جمع الكثرة

من أمثلة ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ (البقرة:٢٦١) حيث كان الأصل أن توصف السبع بجمع القلة سنبلات كما قال الله تعالى فى سورة يوسف ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ (يوسف:٤٣) إلا أن الآية هنا قد عدلت عن القلة المناسبة للسبع إلى الكثرة لغرض بلاغى لا للاتساع فى اللغة أو لتعاور الأبنية كما ذهب إليه الزمخشرى فيما نرى.

وهذا الغرض البلاغى فيما نرى إنما هو مناسبة سياق الآيات الدال على التكثير والمباركة من الله تعالى لهذه الصدقة، وإلا فقد استغرب التمثيل بسنبلة تنبت مائة حبة واستشكلوا إمكان وقوع ذلك.

والمقصود أنه مقام تكثير وبركة من الله تعالى، وجزاء واسع غير محدود ولذا ذيلت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ فهى" زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له".

ثالثا : التنويع الأسلوبي في مجال الضمائر:

وقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]. فيه ما يعرف في البلاغة بالالتفات(٣٥)

وذلك أن الخطاب في سورة الفاتحة قد بدأ بصيغة الغائب ثم تحول إلى الخطاب ؛ حيث جاء الحديث عنه سبحانه بصيغة الغائب ؛ فقيل : الحمد لله على أنه غائب عن العبد، ولم يقل الحمد لك يا رب على الخطاب ، واستمر على ذلك في الآيات بعدها على الغيبة ، ثم التفت أي انتقل إلى صيغة أخرى هي صيغة الخطاب ، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]

والسر في ذلك هو مراعاة حال العبد ؛ حيث يكون غافلا في أول القراءة فكأن الله غائب عنه – بالنسبة له ، وهو لا يزال يتعرف عليه شيئا

فشيئا ، فيقرأ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ فيعرفه بربوبيته العامة الشاملة لجميع خلقه ، ثم يقرأ : ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾، فيعرفه برحمته العامة والخاصة في الدنيا والآخرة ، ثم يقرأ : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾، فيعرف أن إليه المرجع والمصير ،وبيده الجزاء وحده ، فيتعلق قلبه به رغبة ورهبة ، فلا يملك إلا أن يتوجه إليه مخاطبا إياه مقرا بعبوديته ووحدانيته مفردا إياه بالاستعانة حيث لا ملجأ منه إلا إليه ؛ فيقول داعيا إياه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾

وفي قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

وفي اختيار الضمائر الدالة على الجمع في : نعبد ، واهدنا : لمحة تدل على قيمة الجماعة ، وهضم الذات أمام الملك ، وأن العبد لا يغتر بسعيه ، بل يتوجه إلى مولاه مستشفعا بمن هو معهم من زمرة الصالحين – لا سيما إن كان في صلاة الجماعة .

ومما جاء من التنويع في الضمائر كذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ [هود:٥٤]؛ فإنه إنما قال" أشهد الله واشهدوا" ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه:" اشهد على أنى أحبك" تهكما به واستهانة بحاله[٣٦]

فالعدول هنا فى كلام ابن الأثير قد وظف توظيفا صحيحا لأنه عدول عن الأصل السياقى؛ وذلك لأن السياق يقتضى (وأشهدكم) بصيغة

المضارع إلا أنه قد عدل عن هذا الأصل السياقى للنكتة التى بينها ابن الأثير.

رابعا : التنويع الأسلوبي في مجال الأدوات:

التنويع في حروف التوكيد :

من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

فإن هؤلاء الرسل حين ووجهوا بتكذيب أصحاب القرية لهم قالوا: **(إنا إليكم مرسلون)** وهو أسلوب خبرى فيه من وسائل التوكيد (إن) واسمية الجملة، فلما بالغ أصحاب القرية فى التكذيب، ولجُّوا فى الإنكار كرر عليهم الرسل الخبر الأول مضافاً إليه ألواناً جديدة من التوكيد حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فجاء الأسلوب كما ترى مؤكدا بالقسم فى صدره و(إن) واللام واسمية الجملة، فضلاً عن التكرار الذى هو فى حد ذاته وسيلة أخرى من وسائل التوكيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أكد إثبات الموت تأكيدين – وإن كان مما لا ينكر – لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت، لتماديهم فى الغفلة، والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون "تموتون" ...وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً – وإن كان مما ينكر– لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن ينكر، بل إما يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبين منزلة المترددين، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته، وحثاً على النظرة فيها، ولهذا جاء "تبعثون" على الأصل" وينقل الطيبى ذلك الكلام السابق للقزوينى فى التبيان مع تصرف يسير فيه، ثم يتبعه بقوله: هذا

والذى يقتضيه النظم الأنيق، وتكرير كلمة التراخى فى الرتبة المستدعية للترقى فى الأطوار من لدن قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أن تحمل إن على مجرد التوكيد بسطاً، فعل المؤمن فى جؤاره: (**ربنا آمنا**) ولما كان الموت هو الوسيلة إلى الوصول إلى نهاية المطالب، وكان مستدعياً لتفكيك ذلك التركيب العجيب الذى من حقه أن يصان منه بقوله: (﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ أكد ذلك التوكيد،وضم مع كلمة التراخى لفظة بعد ذلك.

وكذلك فى قول المنافقين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بإن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهما فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه بين ظهرانى المهاجرين والأنصار والذين مثلهم فى التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: "**ربنا إننا آمنا**"، وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن ينـزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عندهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد".

وعلق الطيبى على قول الزمخشرى السابق فى حاشيته على الكشاف فقال: "قوله: ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ربنا إننا آمنا استئناف، وحاصله أن معنى التوكيد الذى تعطيه (إن) هاهنا ليس راجعاً

إلى المخاطب فى إزالة تردده أو نفى شكه بل إلى المتكلم فى إظهار نشاطه، ووفور ارتياحه إيذاناً بأن المقام خليق بالإطناب، وإبداء ارتياحه ونشاطه وإعلاماً بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغى إليه".

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (يوسف: ١٣)

ذكر يعقوب –عليه السلام- سببين يمنعانه من إرسال أخيهم معهم؛ حزنه لفراقه، وخوفه عليه من أكل الذئب له، وكأنه لا يُسلِّم لهم بالسبب الذى ذكروه؛ وهو أنه لا يأمنهم عليه، وإن كان لم ينكر ذلك صراحة؛ فحاله حال نبى يريد ألا يكذب، ويريد فى الوقت ذاته أن يصرفهم بلطف عما ذهبوا إليه؛ فعدد لهم ما يدفعه إلى منعه عنهم. وهو بالطبع قد راعى حالهم؛ فلم يصارحهم بالسبب الرئيسى، محاولاً التخفيف من تأجج نار الحقد والغل والحسد ليوسف عليه السلام، ولكن جاء الكلام مع ذلك دالاً على حاله كاشفًا عنه.

فالتوكيد فى قوله: **"إنى ليحزنني"** توكيد بإن واللام ليس مقصودًا به المخاطب بلا شك، فأبناؤه متيقنون من شدة محبته ليوسف وأنه لا يصبر على فراقه طرفة عين، ولولا ذلك لما أقدموا على ما هم مقدمون عليه، ورعاية حال المخاطب تقتضى من هذا النبى الحكيم ألا يؤكد ذلك الأمر وألا يظهره لأبنائه لكيلا يزيد اشتعال الحقد فى قلوبهم، ولا يزكى نار العداوة فيها، ولكن جاء هذا التوكيد فلتة من فلتات لسانه كتعبير شعور تلقائى يفيض به قلبه الذى يكاد ينفطر لمجرد تصور الفراق ولو لساعة يسيرة، فيأتى هذا الكلام المؤكد بأكثر من وسيلة من وسائل التوكيد كاشفًا عن تلك الحال ومبينًا لها أتم التبيين.

ويدل لذلك أيضًا تعبيره بالفعل دون الاسم فعبر بـ**"أن تذهبوا به"** بدلاً من **"ذهابكم به"** فأتى الكلام كاشفًا عن حال المتكلم بذلك، وهو أن

الحزن المؤكد يلم به لمجرد وجود فعل الذهاب ومجرد تصور الحدث، بله ما تحدثه نفسه به –وهو صاحب النفس الملهمة- من ذهاب بلا رجعة مريبة، فلذلك جاء التعبير بالفعل الدال على مجرد الحدث دون الاسم الدال على الثبوت والدوام.

التنويع بين حروف الجر:

وذلك كما فى قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: **﴿قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾** (الأعراف :٦٠-٦١) ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك التنويع فى الآية بين الحرف (في) وحرف (الباء).ومعلوم أن(في) تفيد الظرفية والانغماس بالكلية في الشيء أما الباء فهي تأتي للملابسة.

وسر هذا التنويع يرجع إلى أن الملأ من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السلام بالضلال اتهاما مؤكدا بإن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له فى ضلال مبين بما يفيده لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (فى) من معنى الإحاطة والانغماس فى الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح فى نفى هذا الاتهام مسلكا آكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعتها نكرة فى سياق النفى لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفى أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بى شىء من الضلال) [٣٧] أو (ليس بى نوع من الضلال ألبتة، فكان هذا أبلغ فى عموم السلب) [٣٨].

ومن ذلك التعبير بـ(فى) بدلا من (على) في قوله تعالى : " لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ"(طـه:٧١) لنتأمل الجمال في التعبير ب (في) الدالة على

الظرفية لما تعطيه هنا من الدلالة على تمام الإيثاق ،وإحكام القيد ، ومن ثم شدّة التعذيب.

فالآية قد ضمنت الفعل (لأصَلِّبَنَّكُمْ) معنى (لأجعلنَكُمْ) فجمعت لنا معنى الفعلين معا في فعل واحد عن طريق النيابة في الحرف.

ومثل هذا يعرف بظاهرة التضمين ،ويجري على التضمين بهذه الدلالة كثير من أفعال القرآن الكريم . ومن ذلك قوله تعالى :﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة :١٨٧)

يقول الدكتور : محمد نديم فاضل :"فتضمين الرفث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها معنى الإفضاء ، والمتعدى بـ " إلى " ، يمنح العلاقة بين الزوجين لمسة إنسانية تترفع بها عن عالم الحيوان ، لمسة حانية ، فيها من الرفق والنداوة والشفافية مثلما فيها من سمو المشاعر ، وتحسر (إلى) هذه عن مسافر وجهها الجميل لتحكي ما اشتملت عليه المشاعر حين جمعت الرفث إلى الإفضاء فيما أحل الله للزوجين في شهر الصيام لتنأى بهما عن عرام الجسد ، والحبس في الرغبات المكبوتة في اللحم والدم بعد أن تستتبع خلفها معنى الستر يتدثر به كل من الزوجين ، وتتصل بأفق أرفع من الأرض وبغاية أسمى من اللذة ، ترق وترْقى إلى معارج عليا .... وحَسبُ التضمين أنه جعل في لفظ الرفث نداوة يخضرّ بها ، ويرمي ظلاله ، ولمسة رفافة تنأى عن عرام الجسد تبتغي الإعفاف والإنجاب ، وتوقظ معنى الستر في هذا الحرف " إلى " ، فجمع من صنوف البيان ما ذاع صيته على كل لسان"[٣٩]

يقول ابن جني :" اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه. وذلك كقول الله عز اسمه:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة :١٨٧) وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة وإنما تقول: رفثت بها، أو معها؛ لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء؛ وكنت تعدي أفضيت بإلى كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بإلى مع الرفث؛ إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه... (٤٠) "

خامسا : التنويع الأسلوبي في مجال البناء النحوي:

نماذج التقديم والتأخير في متشابه القرآن :

فمما ورد من ذلك في كتاب الله : قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ **(القصص: ٢٠)**

مع قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ **(يس: ٢٠)**

وقد أجاب الإسكافي عن سبب هذا التقديم والتأخير فقال: " إن الفاعل في الموضعين لما كان نكرة فالمعنى : جاء جاءٍ ، وقد دل الفعل على جاءٍ ،ولا يكون الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلا ، وكان الذي يفيد المخاطب أن يعلم أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية ، وحيث لا يقرب من محاري القصة ، ولا يحضر موضع الدعوة ، ومشهد المعجزة ، فقدم ما تبكيت القوم به أعظم ، والتعجب منه أكثر؛ فقال: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه ، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد: جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورا لمكانه فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم، وهو الفاعل؛ إذ لم يكن هنا تبكيت القوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة(٤١)."

علَّل الإسكافي تقدم الجار والمجرور في سورة يس بأهمية إبراز البعد المكاني ،ولعله يلمح إلى بيان أثر هذا البعد قي إظهار المفارقة بين من يسعى لإجابة الرسل من أقصى المدينة ، وبين من أعرضوا عن دعوة الرسل الذين أتوهم في ديارهم ومحالّهم دون كلفة عليهم ولا عناء ،ونلاحظ أن الإسكافي قد علَّل هنا للآية التي تقدَّم فيها الجار والمجرور على الفاعل الذي هو ركن الجملة ، أي اكتفى بالتعليل لما خرج عن الأصل ،ولم ير داعيا لتعليل ما وافق الأصل ، وهو آية القصص التي تقدم فيها الفاعل .

أما ابن جماعة فقد ألمح إلى فائدة أخرى في تقديم الجار والمجرور – من أقصى المدينة - وهي انتفاء التواطؤ بينه وبين الرسل ، أما الآية الأخرى فلم يعلل لتقدم الفاعل فيها باعتباره "جاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة(٤٢) "

وبنحو التعليل السابق لتقدم الجار والمجرور جاء كلام الألوسي موضِّحا ما ألمح إليه الإسكافي من المفارقة التي أشرنا إليها ؛ فقال :"وجاء { مِنْ أَقْصَى المدينة }هنا مقدماً على { رَجُل} عكس ما جاء في القصص ،وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة .

وقال الخفاجي : قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بياناً لفضله إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم ،وإن بعده لم يمنعه عن ذلك ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وإن الله تعالى

يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد ، وقيل قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين[٤٣]."

وقد زاد الطاهر بن عاشور فائدة أخرى لذلك التقديم للجار والمجرور ، واكتفى بالتعليل بموافقة الأصل في آية القصص فقال:"وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة ؛لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل ، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراثٍ بالآخرين لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو .

وبهذا يظهر وجه تقديم { من أقصى المدينة } على { رجل } للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة . وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة ..وأما قوله تعالى في سورة القصص (٢٠) { وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى } فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإيمان." [٤٤]

وقد وافق الكرماني الإسكافي في تعليله لآية يس بما لا يخرج عن مضمون كلامه ثم اجتهد لتعليل التقديم الموافق للأصل معوّلا على مراعاة النظير السابق في السياق فقال :" خصت هذه السورة – القصص - بالتقديم لقوله قبله :(فوجد فيها رجلين يقتتلان) ثم قال (وجاء رجل) ،وخصت سورة يس بقوله :(وجاء من أقصى المدينة) لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا [٤٥]."

والحق أن التعليل بموافقة الأصل حسب ما ذهب إليه الكرماني والطاهر بن عاشور وغيرهما غير كاف ؛ وذلك لاتساع الاختيار بين موافقته أو الخروج عنه ، فالحق أن كلا الأمرين – موافقة الأصل ، والخروج عنه – بحاجة إلى التعليل من الناحية البلاغية الفنية ؛ وذلك لأننا بصدد البحث عن أسرار الجمال القرآني ، ولسنا بصدد البحث عن موافقة الأصل أو القاعدة اللغوية .

كما أن التعليل – الذي ذهب إليه الكرماني بمراعاة النظير بأن يقال : إنه قال :(رجل) ليوافق (رجلين) غير مقبول ؛ وذلك لأنه يصلح أن يكون بيانا لعلة تكرر اللفظ ، لا بيانا لعلة التقديم ؛ وذلك لأن الآية الأخرى – آية يس - قد ورد فيها لفظ (رجل) مؤخرا ولم يسبقه في السياق لفظ (رجل) ولا (رجلين).

ومن ثم فلا بد من البحث عن علة أخرى غير ما ذكرا – أقصد الإسكافي والكرماني- ولعل تلك العلة هي ما ألمح إليها كلام ابن كثير ، وإن كان لم يشبعها بالتعليل والإيضاح الكافي ؛ حيث قال : "قَالَ تَعَالَى : " وجَاءَ رَجُل " وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيق فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَب مِنْ طَرِيق الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ يَا مُوسَى " إِنَّ الْمَلَأ يَأْتَمِرُونَ بِك " أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيك" لِيَقْتُلُوك فَاخْرُجْ " أَيْ مِنْ الْبَلَد " إِنِّي لَك مِنْ النَّاصِحِينَ"[٤٦].

والحق ما ألمح إليه كلام ابن كثير في هذا الموضع الذي جاء على الأصل من أن علّة التقديم ترجع – فضلا عن موافقة الأصل – إلى إبراز صفة الرجولية في هذا الرجل ؛ وقد علل تلك الرجولية بأمور يمكننا أن نستشفها من إشارته السابقة ، وهي:

- ذكاؤه بمخالفة الطريق المرصود لكيلا يدركه الرصد فيحول بينه ، وبين الوصول لنبي الله ﷺ لنذارته وتحذيره وإعلامه بكيد قوم فرعون له.

- سلوكه الطريق الأقرب ليسرع إلى موسى قبل أن يصل إليه خطر.

- سبقه إلى موسى ﷺ وتمكنه من الوصول إليه قبل أن يحدق به خطر أعدائه ؛ فأنقذه بذلك من القتل.

- إفشاؤه تآمر الملأ من قوم فرعون بقتل موسى لموسى ﷺ غير مبال ببطش فرعون وأذاه وعقوبته له التي لا تقلُّ عن القتل والعذاب الشديد إن هو علم بأمره .

- إخلاصه النصح لموسى ﷺ راجيا ثواب الله ورضوانه ، كما يظهر من قوله له يَا مُوسَى " إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِك " أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيك" لِيَقْتُلُوك فَاخْرُجْ " أَيْ مِنْ الْبَلَد :" إِنِّي لَك مِنْ النَّاصِحِينَ"

تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضهاعلى بعض :

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (البقرة : ٤٨)

وقال : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (البقرة :١٢٣)

نلاحظ هنا تشابه الآيتين في أغلب ألفاظهما مع اختلافهما بالتقديم والتأخير في الجمل التي وقعت نعوتا لذلك اليوم .

وذلك أن "(يوما) مفعول به ، وجملة "لا تجزي نفس" نعت لـ "يوم"، والأصل: لا تجزي فيه، ثم حُذف. "شيئا": نائب مفعول مطلق، أي: لا تجزي جزاء قليلا ولا كثيرا. جملة "ولا هم ينصرون" معطوفة على جملة "ولا يؤخذ منها عدل" في محل نصب[٤٧]."

وهاتان الآيتان قد وقف عندهما كثير من المفسرين ،وممن صنفوا في متشابه القرآن متسائلين عن سرِّ الاختلاف بينهما بالتقديم والتأخير ؛

حيث قدم جملة النعت النافية لقبول الشفاعة في الآية الأولى على النافية لقبول العدل ، وعكس ذلك في الآية الثانية .

وقدّ حاول الكرماني الإجابة عن سرّ هذا التقديم والتأخير في الموضعين ؛ فقال في الموضع الأول :"قدم الشفاعة في هذه الآية وأخر العدل، وقدم العدل في الآية الأخرى من هذه السورة وأخر الشفاعة، وإنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله.

وأخرها في الآية الأخرى ؛لأن التقدير في الآيتين معا لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة لأن النفع بعد القبول ، وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدما فيها [٤٨]"

ثم عاد للكلام عنهما في الموضع الثاني فقال :"هذه الآية والتي قبلها متكررتان وإنما كررت لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا ؛لأن كل واحدة وقعت في غير وقت الأخرى والمعصية الأولى "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم"(البقرة : ٤٤) والثانية: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"[٤٩] (البقرة: ١٢٠)

والحق أن كلام الكرماني – في الموضعين ليس كلُّه مقنعا ؛ فلئن قبلنا كلامه في أنه:" إنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله" – أقول إن قبلنا ذلك – فإنا لا نقبل تعليله لتأخير الشفاعة في الآية الأخرى .

فقوله :" قدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدما فيها" غير مقبول ؛ لأنه لا تلازم بين ذكر العدل والقبول بدليل أنه جاء في الآية الأخرى ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ فضلا عن ذلك إن قلنا :(إن العدل والقبول

متلازمان) فقبول العدل لا يلزم منه قبول الشفاعة – حيث يرى أنه قدم قبول العدل لأن الشفاعة لا بد أن يسبقها القبول.

وكذلك إجابته في الموضع الثاني غير مقنعة كذلك ، وهي جعله تكرر الآيتين " لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا "؛ فهذا الكلام غير مقنع ؛ لأن جرائم بني إسرائيل المسرودة في سورة البقرة بين هاتين الآيتين عديدة يصعب حصرها من تجرؤهم على نبيهم ، واستطالتهم عليه ، وسوء أدبهم معه ، وتلكؤهم في تنفيذ أوامره ، والاستجابة لأمر الله ، مع كثرة سؤالهم وتعنتهم في قصة ذبح البقرة ، وغير ذلك .

أما الرازي فقد جعل "الجواب : أن من كان ميله إلى حبِّ المال أشدَّ من ميله إلى علوِّ النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ،ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ، ففائدة تغيير الترتيب ، الإشارة إلى هذين الصنفين"(٥٠)

وبنحو هذا أجاب الشيخ زكريا الأنصاري(٥١).

فنزل الآيتين على صنفين من الشافعين ؛ وهذا أحسن من جواب الكرماني السابق .

أما الغرناطي فقد نظر نظرة أعمق في سياق الآيتين فقال:"وجه ذلك والله أعلم انه لما تقدم فى الآية الأولى قوله تعالى:"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون فى ذلك نجاته ،واذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم:"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحسانى للمأمورين بالبرِّ حين قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الآمرين وان كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون(٥٢)."

فهو يوجه بذلك مناسبة تقدم الشفاعة في هذا الموضع بأنه قد سبقها ما يرشح لاتكالهم عليه - في أفهامهم السقيمة ، وهو الأمر بالبرِّ وامتثال الآمرين له – حسب ظاهر الأمر -أما الموضع الثاني فلم يسبقه ما يشير لشيء من ذلك ؛ فلذا لم تقدم الشفاعة فيه

وهذا الكلام لا يبعد كثيرا عما علل به الكرماني ، وإن كان يدل على تعمق صاحبه في سياق الآيات بصورة أكبر.

وقد أجاب الإسكافي عن ترتيب هذه الجمل بكلام جميل نفيس ، رأيت أن أذكره كاملا لنفاسته فقال :"الوجه في الأولى : أنه لما قال : ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ بمعنى لا يغني أحد عن أحد فيما يلزمه من العقاب ، ولا يكفر سيآته ما له من الثواب ، وهو كقوله عز من قائل: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان : ٣٣) ، فهذه الأشياء التي ذكر - في هذه الآية – امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع تنفى بها المكاره ، وتتداوى بها الشدائد ألا ترى العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة ، وارتهنت نفسه بعظيمة ، وحاولت أعزته دفا[illegible] عنه ، وتخلصه [illegible] في [illegible] الأبيه من مقتضى الحمية ، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته ، ولا يد له بمدافعته عاد بوجوه الضراعة ، وصنوف المسألة والشفاعة ، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن عنه الحالتان ، ولم تنجه الخلتان من الخشونة واللين لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله ، وفكّه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره .

فإن لم تغن عنه هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة ....فأخبر الله تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين ، وترتب هذه المراتب بين العالمين ، لا يغني منه شيء في الآخرة عن الظالمين[٥٣]."

ورغم هذا التحليل الرائع لبيان مناسبة الترتيب في الآية الأولى ؛ فإن بيانه لمناسبة اختلاف الترتيب في الآية الثانية لم يكن مقنعا للوقوف على علة الاختلاف بين الآيتين حيث جعل تقديم العدل وتأخير الشفاعة فيه ليفيد أن "معنى : ﴿لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تغني عنها بفداء ..ويكون بعد ذلك (ولا تنفعها شفاعة)معناه : ولا تخفف مسألة من عذابها ، ولا ينقص شفيع من عقابها[٥٤]."

والحق أن هذا الكلام منه غير مقنع في هذه الآية الثانية ؛لأنه لم يبين لنا ما الذي اقتضى هذه المخالفة في المعنى بين الموضعين مع اتحاد الألفاظ (العدل – الشفاعة) فضلا عن أن ما ذكره في معنى العدل والشفاعة في الآية الثانية ليس مخالفا في الحقيقة لما ذكره من معناهما في الآية الأولى بل هو من مقتضاه ولوازمه.

غير أن أمثل ما رأيته من كلام المصنفين في المتشابه في هاتين الآيتين : كلام ابن جماعة . قال ابن جماعة في جوابه عن سر التقديم والتأخير في الآيتين :"إن الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى ، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية ، كأنه يبين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل ؛ ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها .

ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها ، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها ..؛ فلذلك كله قال في الأولى :(ولا يقبل منها شفاعة) وفي الثانية : (ولا تنفعها شفاعة) ؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع ، وإنما تنفع المشفوع له[٥٥] ."

وهذا - في رأيي – أحسن ما قيل في توجيه متشابه التقديم والتأخير في الآيتين ؛ وذلك أنه بين أن ثمة نفسين : نفسا جازية شافعة ، ونفسا

مأخوذة بجريرتها تبحث عمن يجزي عنها ، أو يشفع لها ،أو يفديها ، أو يحاول نصرها.

وجعل الكلام في الموضع الأول عن النفس الجازية الشافعة ، وفي الموضع الثاني عن النفس المأخوذة بجرمها.

وبيَّن سرَّ التقديم والتأخير في الموضعين وهو ما بين مناسبة التقديم والتأخير لكل موضع مما نيط به ، وكشف في الوقت نفسه عن صحة ما حمل عليه الكلام من معنى النفس في الموضعين .

فبين أن تقديم الشفاعة أنسب في الآية الأولى ؛ حيث الحديث عن النفس الجازية الشافعة "لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها" ؛ وذلك صحيح لأن الشافع يقدم في الشفاعة ماهو أيسر عليه ، وأقل كلفة ، ولا شك أن الشفاعة بالجاه والقول أيسر منها بالعدل وهو الفداء بالمال أو النفس ونحوهما.

وبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل أي فداء عن نفسها ، ولا تنفعها شفاعة شافع [illegible] ، فلذلك كله قال في الأولى (ولا يقبل منها شفاعة) وفي الثانية : (ولا تنفعها شفاعة) ؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع ، وإنما تنفع المشفوع له .

لكن بقي أن نقول :إنه مع اختلاف المقصود بالنفس في كل ، وما يعود على كل ؛ فلم يختلف سياق الآيتين بين النفس الجازية ، والنفس المأخوذة بجرمها في قوله (لا تجزي) وقوله : (ولا هم ينصرون) ؛ وذلك لأن كلا من النفسين منفي عنهما ذلك ، وهما فيه سواء في ذلك اليوم ، كلاهما : لا يجزي ، وكلاهما لا ينصر.

ومن ذلك أيضا (من تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض):

قوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾ (الأنعام: ٣٢)

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ (الأنعام: ٧٠)

وقوله تعالى :﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)﴾ (محمد: ٣٦)

وقوله تعالى :﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾ (الحديد: ٢٠)

وقوله تعالى :﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾ (الأعراف٥١)

وقوله تعالى :"وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت: ٦٤)

وقد اجتهد المفسرون في بيان سرِّ التقديم والتأخير بين هذه الآيات فقال الرازي :" قال هناك : { إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ } وقال ههنا : { إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ } (الأعراف٥١) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة

وإظهارهم للحسرة ، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو[٥٦]."

وقد تبعه في ذلك ابن عادل في اللباب ، ولم يزد عليه[٥٧].

وكلامهما في هذا الموضع – إن قبل في هذين الموضعين - غير شامل لكل المواضع.

وقد حاول الطاهر بن عاشور التوجيه البلاغي لهذا التقديم عند آية العنكبوت فقال:"وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث كقول قيس بن الخطيم مشيرا إلى الموت :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام . ووجه ذلك أن هذه الآية لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها وأما آية سورة الأنعام فتقدم قوله (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى .

وأما تقديم ذكر اللهو هنا وذكر اللعب في سورة الأنعام فلأن آية سورة الأنعام لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا فكان الابتداء بأنها لعب مشيرا إلى تحقيرها لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو[٥٨]."

وينتقض عليه هذا الكلام بأن آية الأعراف لم تشتمل كذلك على اسم الإشارة ؛ ومع ذلك فلم تبدأ باللهو.

أما الكرماني فقد كان أكثر دقة وشمولية حيث ذهب إلى أنه "إنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا ،واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد:"اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب" كلعب الصبيان ،ولهو كلهو الشبان ،وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الإخوان ،وتكاثر كتكاثر السلطان...

وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى،وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ،وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا،وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأبدها ، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا[٥٩]."

فالكرماني قد بيَّن سرَّ تقديم اللعب في الجملة بما يشبه مونه الأصل الذي لا يحتاج إلى تبرير ؛وذلك لأن الأصل البدء باللعب ؛ لأنه زمن الصبا ، وهو أسبق من اللهو الذي يكون في زمن الشباب ، واستشهد لذلك بآية الحديد التي رأى أنها قد جاءت مقسمة على أزمان الدنيا و أحوالها.

ثم فسر تقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى ؛ أي فسّر على آخر عهدهم بالدنيا قبل القيامة ، وهو اللهو الذي أوردهم المهالك.

أما العنكبوت فلما كان المقصد هو مقارنة الدنيا بالآخرة وبيان أنها سريعة الانقضاء قليلة البقاء ، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا.

أما الإسكافي فقد اقتصر على موضعين لكل نوع ؛ فذكر في تقدم اللعب آيتي الأنعام والحديد، وفي تقدم اللهو آيتي الأعراف والعنكبوت.

وذهب في تعليل تقدم اللعب في الأنعام بأنه ورد في جماعة من الكفار كانوا يستهزئون بآيات الله ويتخذونها هزوا ولعبا مستشهدا بما ورد

من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ (النساء: ١٤٠)، قال: "فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ ، وسمعوا القرآن ، وعبثوا عند سماعه ، ولعبوا بآياته ...فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم : اسم اللعب(٦٠)."

وعلل لترتيب آية الحديد بنحو ما علل به الكرماني من بعده.

وعلل لترتيب آية الأعراف في تقديم اللهو بأنها إنما وردت في عامة الكفار "الذين شغلتهم الحياة الدنيا وحلاوتها ، والولاية وغباوتها . واستجلاء ما مرنت عليه طباعها ، وهذا هو اللهو(٦١)."

وذهب في بيان سرِّ ترتيب آية العنكبوت إلى نحو ما ذكره الكرماني من بعده مع شيء من التفصيل والتطويل.

وقد أطال الغرناطي في هذا الموضع بكلام طويل لا يخرج عما ذكره الإسكافي وما نقلناه عن الكرماني فلم نشأ التطويل بذكر شيء منه.

وما قدمناه من كلام كلٍّ من الإسكافي والكرماني يعد تعليلا وافيا وشاملا لبيان سرِّ التقديم والتأخير في هذه الآيات .

تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض:

فمن ذلك :

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ (عبس:٣٧).

وقوله : ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)﴾ (المعارج:١٤)

قال الرازي :"المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم في دار الآخرة ، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)﴾ بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد ، لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين[٦٢]."

فالمراد إذن أن ترتيب الآية قد ورد على الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى ، على سبيل الإضراب عن الأدنى إلى الأعلى.

"فالآيات مسوقة لتصوير هول الموقف في يوم القيامة ، واضطرار الإنسان إزاء هذا الهول إلى التخلّي عن أهله والفرار من أحبابه وعشيرته ، وقد رتبت الآيات هؤلاء الذين يفر منهم ترتيبا يوحي بتصاعد الإحساس بهول هذا اليوم وكربه ؛ فالمكروب يفر من أخيه قبل أن يفر من أبويه ، فإذا زاد عليه الكرب فرَّ من الأبوين، وبقي مستمسكا بالصاحبة والبنين ؛ فإذا تضاعف عليه الهول فرَّ من الصاحبة ، وبقي متعلِّقا بولده ، حتى إذا بلغ به الكرب ذروته نسي فلذات كبده ، ولم يعد مهموما إلا بذاته ومصيره[٦٣].

وبينما جاء الترتيب في آية الفرار تصاعديا ، فقد جاء الترتيب في آية الافتداء تنازليا على العكس من موقف الفرار ؛ وذلك لأنه موقف قد بلغ

فيه الكرب والهول ذروته ؛ وهذا ما تكشف عنه الآيات السابقة لهذه الآية من أول السورة إلى هذا الموضع ، قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ (المعارج : ١١)

فلشدّة الكرب وهوله ورغبة المجرم في سرعة الخلاص من الكرب والهول فإنه يسارع بالافتداء بأعزّ ما يملك – إن كان يملك في ذلك اليوم شيئا – فليس الموقف موقف مساومة ؛ ثم إذا لم يقبل ذلك منه زاد أكثر وأكثر حتى يفتدي بمن في الأرض جميعا إن كان يملك ذلك على أن ينجو بذلك.

ملخص الوحدة

- تم التعريف بظاهرة التنويع الأسلوبي، وعرض أهم المصطلحات التي أطلقها البلاغيون القدماء عليها.

- عرض مجالات تحقق هذه الظاهرة في القرآن الكريم، وهي: مجال الصيغ - مجال العدد - مجال الضمائر - مجال الأدوات - مجال البناء النحوي.

- تحليل عدد من الآيات من خلال تلك المجالات، والوقوف على سر التنويع الأسلوبي فيها.

الهوامش

(١)الكشاف للزمخشرى ١٢٤/٤.

(٢)عبد السلام -المسدى/ الأسلوبية/ص ٩٤

(٣)دلائل الإعجاز ص ١٧٧.

(٤)انظر العدول إلى اسم الفاعل.

(٥)انظر الألوسى ١١/٢، والكشاف ١٠١/١، وانظر الرازى ٥٠٩/٢.

(٦)انظر الدر المصون ٤٠١/١.

(٧)انظر الظلال ١٣٥/١.

(٨)المثل السائر ص ١٨٠.

(٩)انظر تفسير الرازى ١٢٠/١٢ والكرمانى ص ٨١.

(١٠) الرازى ١٢٠/١٢، وأحب أن أنبه إلى أن أكثر المفسرين قد انشغلوا فى هذا الموضع بمجىء الكلام المذكور على لسان فرعون فى سورة الشعراء؛ وعلى لسان الملأ فى سورة الأعراف، فانشغلوا بذلك عن تأمل ما ذكرت، وقد التفت بعضهم إلى اختلاف الصيغة فى السورتين ولكنه لم يحسن توجيه ذلك الاختلاف. (انظر على سبيل المثال الكشاف٨١/٢، الألوسى ٢٢/٩-٢٣، مفاتيح الغيب ٢٢٨/٧، مسائل الرازى ص ٩٧.

(١١) انظر الكشاف ١٥٩/٣ وانظر أبو السعود ٤٧/٧، والنظر ما سبق نقله عن سيبويه فى معنى الفعلان فى الفصل الخاص بالمناسبة بين الصيغة والمعنى.

(١٢) الكشاف ٦٧/٢.

(١٣) الرازى ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤، -- أبو السعود ٢٣٥/٣.

(١٤) انظر الجلالين ص ٢٠٢.

(١٥) الألوسى ١٥١/٨.

(١٦) التبيان للطيبى ١٧١/١.

(١٧) انظر الكتاب لسيبويه ٢٤١/٢ وانظر شرح الشافية ١٠٨/١ وانظر الحملاوى شذا العرف ص ٤٤.

(١٨) انظر سيبويه ٢٤١/٢.

(١٩) انظر الدر المصون ٦٩٧/١.

(٢٠) انظر الكشاف ١٧٢/١ وانظر الرازى ٥٢/٥١/٤.

(٢١) انظر الطبرى ١١١/٢٩.

(٢٢) انظر المحرر الوجيز ٣٩٣/١، وقد نقل كلامه كل من القرطبى ١٢٣٨/٢، ١٢٣٩، والسمين الحلبى ٦٩٧/٦٩٦/١.

(٢٣) المثل السائر ص ١٨٣.

(٢٤) المثل السائر ص ١٨٣-١٨٤.

(٢٥) سورة النساء/١٣/١٤.

(٢٦) تفسير أبى السعود١٥٤/٢.

(٢٧) انظر الكشاف ١٤٦/٤.

(٢٨) انظر التبيان للطيبى ١٥٣/١.

(٢٩) انظر الكشاف السابق - الرازى ٧٦٩/١٥ الألوسى ٨٦/٢٩- الدر المصون ٣٩٢/٦، القرطبى ٦٨٠٤/١٠.

(٣٠) انظر البحر المحيط ٢٨٣/٢.

(٣١) روح المعانى ١٤/٣.

(٣٢) انظر بدائع الفوائد ١١٩/١. ط / دار الفكر.

(٣٣) انظر روح المعانى – السابق.

(٣٤) انظر تفسير أبى السعود ١٤٥/٥.

(٣٥) الالتفات عرفه الطيبي وغيره بأنه الانتقال من إحدى الصيغ إلى صيغة أخرى رعاية لنكتة . انظر التبيان في المعاني والبيان – بتحقيقي – ط مكتبة نزار الباز.

(٣٦) المثل السائر ص ١٧٩-١٨٠.

(٣٧) الكشاف ٦٧/٢.

(٣٨) الرازى ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤، -- أبو السعود ٢٣٥/٣.

(٣٩) د/ محمد نديم فاضل (التضمين النحوي في القران الكريم) طبع ونشر مكتبة دار الزمان- بالمدينة المنورة ٣٦٧/١ ، وسيأتي تعقيبنا على كلامه قريبا

(٤٠) الخصائص - (ج ١ / ص ١٩٥)

(٤١) الخطيب الإسكافي - درة التنزيل وغرة التأويل - تحقيق محمد مصطفى آيدين – ١٤٢٢هـ - ص ١٠٨٤ – ١٠٨٥.

(٤٢) ابن جماعة : ص ٣٠٤

(٤٣) الألوسي - تفسير روح المعاني – ط دار إحياء التراث العربي (ج ١٦ / ص ٤٤٧)

(٤٤) التحرير والتنوير (ج ١٢ / ص ٢٣)

(٤٥) الكرماني :١٤٥

(٤٦) تفسير ابن كثير (ج ١٢ / ص ٧٨)

(٤٧) سيرد ذلك - إن شاء الله تعالى – في خاتمة البحث.

(٤٨) مشكل إعراب القرآن - (ج ١ / ص ٧)

(٤٩) الكرماني :ص ١٢

(٥٠) أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٣٤)

(٥١) تفسير الرازي - (ج ٢ / ص ٨٠)

(٥٢) الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٢٠

(٥٣) الغرناطي : ص ٣٩

(٥٤) الإسكافي – تحقيق محمد آيدين ٢٢٨

(٥٥) السابق

(٥٦) ابن جماعة : ص ٥٧ - ٥٨

(٥٧) تفسير الرازي - (ج ١٢ / ص ١٩٧)

(٥٨) ابن عادل - تفسير اللباب (ج ١٢ / ص ٤٦٧)

(٥٩) التحرير والتنوير - (ج ١ / ص ٣٢١٥)

(٦٠) أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٦٨)

(٦١) الإسكافي – تحقيق محمد آيدين – ٤٤/٢

(٦٢) السابق

(٦٣) تفسير الرازي - (ج ١٦ / ص ٣٧٠)

(٦٤) بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ١٠٤

الوحدة الثالثة

بلاغة الصورة البيانية في القرآن الكريم

بين التصوير الفني والتصوير البياني

الأهداف:

٤ـ إيقاف الدارس على مفهوم كل من التصوير الفني والتصوير البياني في القرآن الكريم

٥ـ إيقاف الدارس على مفهوم التشبيه التمثيلي وعرض بعض نماذجه في القرآن الكريم

٦ـ تقوية الحس البلاغي لدى الدارس بتحليل عدد من النماذج القرآنية المشتملة على العديد من الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه.

العناصر:

١ـ مفهوم كل من التصوير الفني والتصوير البياني في القرآن الكريم مع عرض نماذجه.

٢ـ مفهوم التشبيه التمثيلي وعرض بعض نماذجه في القرآن الكريم.

٣ـ تحليل عدد من النماذج القرآنية المشتملة على العديد من الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه.

مفهوم التصوير الفني:

التصوير الفني في أدق معانيه وأوضحها هو ذلك النوع من التعبير الذي تستثار فيه جميع إمكانات اللغة وطاقاتها على جميع مستوياتها التعبيرية لتعبِّر عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس والرؤى بطريقة تصويرية بارعة تتأنق فيها الألفاظ والتراكيب لتقرِّب تلك المعاني والأفكار والمشاعر إلى النفس بعرضها في صورة ملموسة يسهل تصورها، ويستعذب الخيال تأملها، ويطيل الوقوف إزاءها ليتأمل مدى المطابقة بينها وبين الواقع متقاربة منه، أو متسامية عليه محلقة في آفاق من الخيّال والجمال.

التفريق بين التصوير الفني وبين التصوير البياني المعهود:

وإذا كان البلاغيون قد حصروا التصوير البياني في حدود الصور البيانية المعهودة من تشبيهٍ واستعارة وكناية ومجاز فالحق أن التصوير الفني أوسع من أن يحد بحدٍّ أو صور بيانية بعينها؛ بل تتميز نماذجه بروعة التصوير وجماله سواء كان على مستوى الحقيقة أو المجاز.

ولك أن تتأمل – على سبيل المثال روعة التصوير لحال المنافقين وما انطبعت عليه نفوسهم من الجبن والخوف والهلع في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة:٥٧].

حيث تعجب لدقة التصوير الفني والجمالي في مثل هذا الموضع – من خلال استثمار طاقات الألفاظ والتراكيب على مستوى الحقيقة دون الاستعانة بشيء من المجاز أو التصوير البياني - على اختلاف فنونه وتنوعها – فتعجب كيف صوَّر هذه الصورة المتحركة التي لا تصوِّر المشاهد الظاهرة فحسب؛ بل تصوِّر كذلك دواخل هؤلاء المنافقين وما انطبعوا عليه من الجبن والخوف والهلع وشدة الحرص على الحياة

والتعلق بها؛ فتراهم يبحثون عن أي ملاذ لهم معبرا عن شدة حرصهم على الحياة وتمنيهم لها بأداة الشرط (لو) وبالمضارع الدال على استمرارية هذا التمني وتجدده منهم (يجدون) مع ما في دلالته المعجمية على معنى البحث والتفقد، ثم التعبير بصيغة المكان (ملجأ) والإتيان بها منكرة في سياق الشرط لإفادة العموم؛ فهم يتمنون أي ملجأ يحتمون به ولو كان حقيرا دنيئا، ثم في التعبير بـ(أو)التي تفيد التخيير والتنويع لتدل هنا على استواء تلك الملاجئ لديهم؛ لأن ما يغلب على تفكيرهم، ويهجم على نفوسهم هو محاولة اللجوء والاحتماء بأي سبب من الأسباب، ثم في جمع (المغارات) مع ما في دلالتها المعجمية من معاني الغور والبعد والاختفاء، ثم لك أن تتأمل جمال التعبير في صيغة اسم المكان (مدَّخلا) المأخوذة من الفعل (يدَّخل) – على صيغة (يفتعل) التي تأتي لتكلف الشيء ومحاولته ليصوّر لك شخصا يحاول أن يحشر نفسه في مكان ضيق حشرا بنوع من التكلف والمحاولة والمبالغة في الفعل، ثم في التعبير بلام التوكيد في (لولّوا) مع التعبير بالتولّي وما فيه من معنى الهروب والفرار والجبن والتخاذل والهلع وغير ذلك من المعاني التي تأتي محمولة على اللفظ، ولا يقوم بها لفظ دونه، ثم التعبير بـ(إلى) التي تفيد التوجه والقصد إلى تلك الأماكن على بعد المسافة عنها مسارعة في اللجوء إليها والاحتماء بها، ثم في التعبير بتلك الجملة الحالية التي تصور حالهم وما صاروا إليه من الخوف والهلع الذي صوره القرآن من خلال جموح البصر وجحوظه وثباته نحو تلك الملاجئ لا يحول عنها ولا يزول، وذلك من خلال دلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام على تلك الصفة.

ولك أن تتصور كذلك براعة التصوير وجماله في هذه الصورة الكلية الحقيقية التي يرسمها رب العزَّة – جلَّ وعلا للكون بعد إهلاك الكافرين

من قوم نوح بالطوفان، وإنجاء نوح والمؤمنين معه في سفينة النجاة في قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود: ٤٤]

"وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع! أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها.

إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلعي واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ(يا) دون (أي) نحو: يا أيتها الأرض. ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أُتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها. ثم أن قيل: وغيض الماء. فجاء الفعل على صيغة (فُعِل) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر. ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: (وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ). ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو (وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ). ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة قيل في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة،

وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟"[١].

ففي هذا النص السابق يبين لنا عبد القاهر الجرجاني أن اتّساق المعاني – في هذا النص وغيره - لم يكن إلا لاتساق الألفاظ وحسن تركيبها وتناسقها، وهو أمر تتضافر في تحقيقه علوم البلاغة وفنون القول جميعها في القديم والحديث؛ وذلك أنه لا ينكر ذو ذوق روعة التصوير لهذا الحدث الجلل في الآية السابقة، ولا يستطيع عالم كذلك من علماء البلاغة نسبة تلك الروعة، أو تفسير مظاهر الجمال في هذه الآية في ضوء فنون البيان المعهودة المحدودة فقط؛ إذ ليس في الآية تشبيه ولا كناية ولا شيء من المجاز المعهود إلا بضرب من التكلُّف والتمحُّل في القول بشيء منها؛ اللهم إلا في استعارة البلع للأرض – وإن كان ذلك أيضا مما يجري مجرى الحقيقة - أتراك تتجاهل كلَّ ما بُيِّن لك من مظاهر الجمال في الآية النابع من تناسق ألفاظها وانسجام حروفها ثم تبحث بعد ذلك كلِّه عن صورة جزئية تنسب لها الفضل كتلك الاستعارة،

وماذا عسى أن تكون تلك الاستعارة في تلك الصورة المتلاحمة الأجزاء؛ حيث كلُّ كلمة فيها؛ بل كل حركة إنما هي جزء لا يتجزأ من نسيج تلك الصورة الرائعة، ومما يزيد تلك الصورة روعة ما نشاهده فيها من الحركة والحياة؛ فثمة أمر إلهي للأرض فإذا هي تستجيب على الفور فتبلع ماءها فكأنما هي قد انقلبت حوتا عظيما يبلع تلك المياه العظيمة، وفي الوقت نفسه تؤمر السماء فتقلع عن هطولها؛ فترى المطر ينقطع، وترى السحاب ينقشع، وترى صفحة السماء وقد صارت صافية ناصعة، وتنظر إلى الماء فتراه يغيض وينقص حتى يتلاشى في لمح العين؛ إنها صورة تفيض بالحركة، وتظهر فيها يد القدرة تحرك هذا الكون، وتتحكم في مقاديره.

التصوير الفني للمعاني المجردة:

وقد تظن أن التصوير لا يكون إلا للأحداث والوقائع وحركة الأجرام والأجسام، وتتغافل عن تصوير المعاني وحسن عرضها في أحسن صورة وأبهاها،

ويمثل لذلك أيضا - عبد القاهر - بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ فيقول:"ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخرت فقلت: وجعلوا الجن شركاء لله، وأنك ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر إلى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة. ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير. بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن. وإذا أخر فقيل: جعلوا الجن شركاء لله، لم يفد ذلك ولم يكن في شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى. فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه، وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن شركاء مفعول أول لجعل، ولله في موضع المفعول الثاني، ويكون الجن على كلام ثاني على تقدير أنه كأنه قيل: فمن جعلوا شركاء لله تعالى، فقيل: الجن، وإذا كان التقدير في شركاء أنه مفعول أول، و لله في موضع المفعول الثاني، وقع الإنكار على كون شركاء الله تعالى على الإطلاق من غير اختصاص شيء دون شيء، وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن، لأن الصفة إذا ذكرت مجردة غير مجراة على

شيء كان الذي تعلق بها من النفي عاماً في كل ما يجوز أن تكون لـه تلك الصفة"(٢).

فانظر كيف جعل ذلك التعبير من الصورة المبهجة وجعل حالك – إن غيَّرت تلك الألفاظ عن وضعها التي اتسقت عليه - حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر إلى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل.

تصوير النماذج البشرية:

وقد تكون الصورة الفنية نموذجا بشريا للخير أو الشر، تعرضه عرضا حقيقيا، توظف فيه أدوات اللغة وإمكاناتها دون شيء من صور البيان المعهودة من التشبيه والاستعارة والكناية ونحو ذلك، وإن شئت فتأمل هذا النموذج البشري للخيرية والكمال الإنساني لعباد الرحمن في القرآن الكريم:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٤- ٧٢]

ومن ذلك أيضا فيما عدَّ من صفاتهم قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩]

أو إن شئت تأمل فيما ذكر من حسن جزائهم في الآخرة:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١- ٥٧].

فتأمَّل هل ترى فيما عُدَّ من صفاتهم أو من جزائهم شيئا من المجاز؟ أم أنك أمام صورة كلية رائعة لنموذج الخير البشري في هذا الوجود؟!

وتأمل في المقابل قول الله تعالى في أضداد هؤلاء:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

ألست أمام صورة عجيبة كذلك لنموذج الشرِّ في هذا الوجود، وهو ذلك الإنسان الكافر الجاحد المعرض عن عبادة ربِّه ؟!

ومع إقرارك بجمال التصوير لتلك الصورة وإحكام الصنعة فيها فإنك تقرُّ كذلك بأنه ليس ثمَّة تشبيه ولا استعارة ولا كناية ولا مجاز !

تصوير المشاهد الغيبية:

وتأمل إن شئت كذلك صور القيامة ومشاهد الأهوال والعذاب والنعيم في ذلك اليوم مما يقسم ربُّ العزَّة جلَّ وعلا على وقوعه في نحو قوله تعالى:

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ [الطور ١- ١٥].

أفلست ترى كيف يقررهم الله تعالى يوم القيامة بحقيقة ما يرون وبأنه واقع لا شك في رؤيتهم له ليس بالسحر ولا بالخيال؟!

وحتى لا يطول بنا المقام فإني أحيلك على كتاب الله تعالى لتأمل ما فيه من صور الحقائق التي لا ريب فيها من ذكر أهوال القيامة ومشاهدها، ومن ذكر أحوال المؤمنين من المتقين والصالحين، وأحوال أضدادهم من الكافرين والعصاة والغافلين، وكيف كانت أحوالهم في الدنيا، وإلام صارت مآلاتهم في الآخرة....الخ ما في كتاب الله تعالى من ذلك ونحوه من الحقائق(٣).

وتأمل تلك الصور واللوحات التي يرسمها القرآن لصفحة الكون وجماله وإبداع الخالق فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: ٢٧- ٢٨].

فتأمل في ذلك كلِّه جمال التصوير وروعته مع أنك لست إلا أمام حقائق لا مرية فيها، وليس فيما يتلى عليك شيء من البيان أو التصوير المعهود مما اقتصر عليه المتأخرون في مباحث البيان،

ومن ثم نقول إن أدوات اللغة كلها بجميع مستوياتها المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية وغير ذلك تشترك في صنع وتخليق تلك الصور الفنية العجيبة التي تتراءى لنا في نماذج الأدب وروائعه،

وأن هذه الصور هي أوسع وأرحب من أن تحدَّ بهذه القوالب المحدودة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز؛ فهي قد تكون كذلك، وقد تكون ضروبا من الحقيقة الخالصة تتنوع وتتعدد بتعدد صور ذلك الكون واختلاف أشكاله وأضداده من الخير والشر، والحق والباطل، والصالح والطالح، والليل والنهار، والسهل والجبل، والنور والظلمة، والظل والحرور...الخ

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾[فاطر: ١٩- ٢٢].

من نماذج التصوير البياني في القرآن الكريم

التشبيه التمثيلي (نموذجا):

مفهوم التشبيه التمثيلي: وهو ما كان وجهُ الشّبه فيه صورةً منتزَعَةً من متعدِّد، كما في قول الشاعر:

كأن مثار النقع فوق	**وأسيافَنا، ليل تهاوى**

فإن وجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام نيرة متناثرة، وسط شيء مظلم.

ولم يقصد الشاعر إلى تشبيه النقع بالليل، والسيوف بالكواكب. وإنما قصد إلى تشبيه الهيئة بالهيئة، أي هيئة السيوف اللامعة التي تهوي من الأعلى إلى الأسفل، وسط الغبار الأسود، بهيئة الكواكب المنيرة حال

تساقطها من السماء وسط ليل مظلم.وغير التمثيلي ما كان لم يكن هيئة منتزعة من متعدد، بأن كان أمرا واحدا أو متعددا.فالواحد كتشبيه زيد بالأسد في الشجاعة.

والمتعدد كتشبيه زيد بالقمر في العلو والوضاءة.

بعض أمثلة التشبيه التمثيلي في القرآن:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

"هذا مثل ضربه الله لليهود، وهو أنه شبههم بحمار، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بما فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبه تكليفهم بالتوراة: بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي ف تلك الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرفوا وبدَّلوا فلم ينفعم ما في كتابهم من العلوم،

ووجه الشبه عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح الله تعالى هذا في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦] فقد جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به....

كالعيس في البَيْداء يقتلها والماء فوق ظهورها

والذي يظهر والله تعالى أعلم، أنه من قبيل التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتباً نافعة، والحامل حمار لا علاقة له بها.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج آية: ٣١]. هذا تشبيه لحال المشرك الذي سقط من نظر الله، وسقطت مكانته عنده؛ فهو متنكس بضلالته، لا شأن له، يشبه من خرّ من السماء، لا شيء يحميه، أو ينقذه من الخطر الذي يحيط به، وهو لا بدّ واقع في المهالك والمهاوي المردية،تخطفه الطير فتقطّعه بمخالبها، وتمزقه إرْبًا إرْبًا، أو ستهوي به الريح في مكان سحيق،جزاء وفاقا إنها صورة التمزق والضياع التي يعيشها المشرك بالله، الكافر بنعمه، حينما يعرض عن طاعة ربه، وهي صورة مرعبة مخيفة، تمثل سوء العاقبة، وهول النهاية، وقد وردت على شكل التشبيه التمثيلي: فالمشرك في انخلاعه من حماية الله، وتركه المرفأ الأمين، كالساقط من السماء والأخطار تحدق به من كلّ مكان، "إنه مشهد الهويّ من شاهق {فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ}، وفي مثل لمح البصر يتمزق {فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ} أو تقذف به الريح بعيداً بعيداً عن الأنظار: {أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ} في هوة ليس لها قرار!

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ «بالفاء» وفي المنظر بسرعة الاختفاء،، على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه؛ فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه،"(٤).

٣- ومثاله أيضا قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة:٢٦١] فالمشبه: حال من ينفق قليلا في سبيل الله، والمشبه به: حال من بذر حبة فأنبتت سبع سنابل، ووجه الشبه: هو صورة من يعمل قليلا فيجني من ثمار عمله كثيرا، وهو منتزع من أمور شتى: (حبة، وإنباتها سبع سنابل، وكون مائة حبة في كل سنبلة).

٤- ومن الأمثلة أيضا:

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

فيه: تصوير لأعمال الكفار في عدم نفعها وأنها لا أثر لها يوم القيامة، ولا يعتمد عليها في نجاة صاحبها من النار، حيث يلتمسها وهو في أشد الحاجة إليها فلا يجدها كحالة الرماد الذي يتطاير في يوم عاصف فلا يقدر صاحبه عليه. فهنا تشبيه هيئة بهيئة.وليس تشبيه مفرد بمفرد.

نماذج كلية للتصوير الفني والبياني في القرآن الكريم

التصوير الفني والبياني لدعوة نوح قومه

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١- ٢٠]

سبق أن بينا أن التصوير الفني هو ذلك النوع من التعبير الذي تستثار فيه جميع إمكانات اللغة وطاقاتها على جميع مستوياتها التعبيرية لتعبِّر عن الصور والمعاني بطريقة تصويرية بارعة تتأنق فيها الألفاظ والتراكيب لتقرِّب تلك المعاني والصور في صورة ملموسة يسهل تصورها، ويستعذب الخيال تأملها.

ونستطيع أن نستعرض هنا – في دعوة نوح عليه السلام قومه – عددا من الصور الكلية والمشاهد الواقعية التي استثمرت فيها إمكانات اللغة بجميع مستوياتها اللغوية لعرض تلك المشاهد وتصويرها تصويرا فنيا رائعا يعاين المرء فيها تلك الصور والمشاهد وكأنه حاضر فيها مشاهد لها، فمن ذلك مشاهد نوح عليه السلام في دعوته قومه ليلا ونهارا، خفية وجهارا، إعلانا وإسرارا، ترغيبا وترهيبا، دعوة متنوعة بوسائل عديدة منها القلبية الوجدانية، ومنها العقلية التأملية، وتستطيع أن تتأمل ملامح هذه الصورة واللوحة الفنية البارعة ونوح عليه السلام يدعو قومه،وهم معرضون عنه، وقد جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا.

وفي هذه الصور والمشاهد تتلاحم الصور البيانية الجزئية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مع الصور الكلية التي تسهم في تشكيلها جميع أدوات اللغة الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية مما سنقف على ملامحه في هذا العرض الموجز لتلك المشاهد.

* * *

تبدأ الآيات بمشهد عرض نوح عليه السلام دعوته على قومه ببيان واضح قوامه الترغيب والتبشير بمغفرة الله ورحمته، وإن كانت لا تخلو في الوقت نفسه من نبرة الترهيب والتلويح بعذاب الله تعالى وشدَّة أخذه وعقابه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [نوح:٣- ٤]

ومع أن الحوار هو - كما وقفنا على تعريفه - عبارة عن مراجعة الكلام بين طرفين؛ فإننا نلاحظ أن الحوار هنا بين نوح وقومه يكاد يكون من طرف واحد – هو نوح عليه السلام – والحوار من الطرف الآخر يكاد يكون سلبيا،أو بأساليب إشارية غير كلامية تدل على النفور والإعراض والصدِّ بصور شتَّى (فِرَارًا - جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ - اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ - أَصَرُّوا - اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

كما نلاحظ في هذه السورة الكريمة تنوع أساليب الدعوة بين الخطاب الوجداني المتنوع بين الترغيب والترهيب، والخطاب البرهاني العقلي التأملي الاستدلالي.

فالخطاب الوجداني يخاطب فيه نوح عليه السلام قلوب قومه، ويبعث فيهم الرغبة والرهبة، فيرغبهم في مغفرة الله ورحمته، ويذكرهم بآلائه ونعمته، والخطاب العقلي التأملي يعرض لهم فيه أدلة ربوبيته ووحدانيته سبحانه في دعوة للتأمل والنظر في آلاء الله تعالى في الكون ومظاهر قدرته فيه، فاجتمعت في هذه الآيات طريقتا الخطاب القلبية الوجدانية بنوعيها من حيث الترغيب والترهيب، والعقلية التأملية بأنواعها من حيث التأمل والبديهة، وذلك في قوله عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٠- ٢٠].

فنجد أسلوب الترغيب واضحًا فيما وعدهم به إن استغفروا الله تعالى وتابوا إليه من إرسال السماء بالخير العميم مع كثرة أموالهم وأولادهم وتفجير الأنهار والجنات من تحتهم. إلخ.

ثم لما لم ينجح ذلك الأسلوب معهم لقسوة قلوبهم وإعراضهم نحا نحو زجرهم وتأنيبهم وتقريعهم فسلك مسلكًا حسنًا من مسالك الترهيب حيث قال: (مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا) ثم عمد إلى طريقة الخطاب العقلي بدعوتهم إلى النظر والتأمل في مخلوقات الله تعالى للاستدلال بها على قدرته ووحدانيته وسائر صفات ربوبيته وألوهيته سبحانه فقال: (أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ...).

وهو في ذلك يجمع بين دعوتهم إلى النظر والتأمل في صفحة الكون، والاستدلال ببديهات العقول وأقيستها المستقيمة المتفقة مع الفطرة السليمة.

وتتضافر في هذه الآيات الوسائل التعبيرية المختلفة على جميع المستويات اللغوية لتصوير هذا الحوار الدعوي الموجه من نوح إلى قومه،

التحليل الأسلوبي للوسائل التعبيرية المعبرة عن هذا الحوار:

يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا الحوار:

على المستوى المعجمي:

نجد توظيف الكلمات ذات الدلالة المعجمية المتناغمة مع الحوار السابق كما في الكلمات:

(مِدْرَارًا- يُمْدِدْكُمْ- أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا- نُورًا- سِرَاجًا- أَنْبَتَكُمْ – نَبَاتًا- وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا- بِسَاطًا- سُبُلا - فِجَاجًا)

(مِدْرَارًا) المدرار هي السماء التي تدرُّ المطر أي تصبُّه صبًّا شديدا، يقال: "دَرَ اللَّبَنُ يَدُرُّ دَرّاً، وكذلك النّاقَةُ. ودَرَّتْ عُرُوْقُها: امْتَلأتْ دَماً. ودَرَّتِ السَّمَاءُ: كَثُرَ المَطَرُ. وسَحَابَةٌ مِدْرَارٌ. وناقَةٌ دَرُوْرٌ...." [٥].

ويقال "للسحاب دِرَّةٌ: أي صَبٌّ. والجمع دِرَرٌ....أي ذات دِرَرٍ. وسَماءٌ مِدْرارٌ، أي تَدُرُّ بالمطر." [٦].

وهذا يدلُّ على مدى مناسبة الكلمة لمعاني: درِّ المطر، ونزول الخير والبركة من السماء؛ فهذا من معاني الدر؛ ولذا قالوا في الدعاء على الشخص : (لا درَّ درُّهُ) أي لا كَثُرَ خَيْرُه.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦]

(يُمْدِدْكُمْ):آثر التعبير بـ(يُمْدِدْكُمْ) [illegible] مثل (يعطيكم) لما فيها من معاني المدد وهو العطاء المشتمل على الزيادة الممتدة بالعون والرِّفد والنصرة،

"حكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثر شئ شيئا بنفسه مده، وإذا كثره بغيره قيل أمده، نحو " يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ".ويدل ذلك على أن هذا الإمداد بالخير لا يكون إلا من ربِّ البرية المتكفل بأرزاق العباد[٧].

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٦]

(أَمْوَالٍ): تطلق الأموال على كلِّ ما يتمول أي يمتلكه المرء من النقد والعرض والماشية والعقار والثياب وبالجملة تطلق على كلِّ ما له قيمة؛ ففي هذه الكلمة إذا من عموم إيصال الخير والنفع ما ليس في غيرها،

وفي لسان العرب: "(مول) المالُ معروف ما مَلَكْتَه من جميع. والجمع أَمْوال وفي الحديث:"نهى عن إِضاعة المال" قيل أَراد به الحيوان أَي يُحْسَن إِليه ولا يهمَل وقيل إِضاعته إِنفاقه في الحرام والمعاصي وما لا يحبه الله وقيل أَراد به التبذير والإِسْراف وإِن كان في حَلال مُباح،قال ابن الأَثير المال في الأَصل ما يُملك من الذهب والفضة ثم أُطلِق على كل ما يُقْتَنَى ويملَك من الأَعيان "[٨].

(أَطْوَارًا):"الطَّوْر: الحدّ بين الشيئين، والجمع أطوار،...والطَّوْر أيضاً: فعلك الشيءَ بعد الشيء، فعلتُ الشيءَ طوراً بعد طَوْر، أي مرة بعد مرّة، وفي التنزيل: " خلقكّم أطواراً "، فُسِّر نُطفةً ثم عَلَقَةً ثم مضغةً، فهذا طَور بعد طَور، والله أعلم بكتابه." [٩].

فدلت هذه الكلمة بما لها من دلالة معجمية على قدرة الله وإعجازه في خلق الإنسان، ولا نكاد نجد كلمة تسدّ مسدها في الدلالة على أطوار الخلق ومراحله المختلفة التي تختلف فيه كلّ مرحلة عن التي تليها والتي بعدها؛ كأن ثمة حدًّا فاصلا بينهما، وما هي إلا القدرة الإلهية،

كما نلاحظ وجه الإعجاز كذلك في التفرقة بين (نُورًا- سِرَاجًا) هي وصف القمر بالنور، وتشبيه الشمس بالسراج تشبيه بليغ يدل على هذه الحقيقة العلمية الدالة على أن القمر إنما يستمد نوره من الشمس التي هي بمثابة السراج المنير؛ أما القمر فنوره مستمد من هذا السراج.

كما نلمح المناسبة التامة في هذه الاستعارة المكنية في وصف الخلق بالإنبات (أَنْبَتَكُمْ – نَبَاتًا-)؛ حيث وصف خلق الإنسان بالإنبات "بناء على أن خلقه من الأرض إنبات له كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح:١٧].

وكذلك قوله تعالى:(وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) ناسب التعبير عن البعث وإعادة الخلق؛ لأن حقيقته إخراج من الأرض كإخراج النبات كما دلّت عليه النصوص فعبر بالإخراج دون البعث والإحياء للدلالة على المشابهة والمساواة بين الحالين، فكما لا يستغرب إخراج النبات من الأرض ينبغي ألا يستغرب البعث لأنه إخراج الأجساد من الأرض، وإنبات أصلها المتبقي وإخراجه بالماء من الأرض كإنبات البقل سواء بسواء.

قال البخاري: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ:١٨] بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بين النفختين أربعون". قالوا: أربعون يومًا؟ قال: "أبيتُ". قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: "أبيت". قالوا: أربعون سنة؟ قال: "أبيت". قال: "ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى، إلا عظمًا واحدا، وهو عَجْبُ الذنَب، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة"(١٠).

"فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب، كذلك الخروج على هذه الوتيرة وبهذه السهولة، الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري، ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحي لكل قلب منيب. وكذلك يعالج القلوب خالقُ القلوب"(١١).

وفي كلمة (بِسَاطًا) تشبيه بليغ يبين كيف أنه "جعل الأرض ممهودة مسهلة للسّير والجلوس والاضطجاع بحيث لا نُتوء فيها إلاّ نادراً يمكن تجنبه"(١٢).

أما قوله: سُبُلاً فتدل على كل سبيل متخلل في الأرض كما في قوله تعالى: "وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا"، أي أسلك فيها سبلاً، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض، أي داخلة فيها، أي متخللة، وذلك (كناية) عن كثرتها في جهات الأرض،

والمراد بالسبل: كلّ سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل النّاس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابعُ الناس السير فيها "(١٣).

قال القرطبي:"السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين." (١٤).

قال الزمخشري في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾ [لقمان:١٠] [فجاجاً] الفج: الطريق الواسع، فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: ٢٠] قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالاً كقوله:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلٌ قَدِيم،.. فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أخدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة "(١٥).

جعلوا أصابعهم: المراد أناملهم؛ ومن ثم فهو (مجاز مرسل) علاقته الكلية، وإنما عبر بالأصابع على سبيل المبالغة في بيان مدى ما هم عليه من الإعراض والصدّ.

٢-على المستوى الصوتي:

نلاحظ تناغم الحروف والحركات والكلمات وتلاؤمها وتناسبها فيما بينها دون تنافر أو ثقل في النطق،كما نلاحظ كذلك تنوعا في فواصل السورة حيث تبدأ السورة بفاصلة ميمية لآية واحدة تمثل تقدمة لهذه القصة، ثم يليها مقدمة نونية هادئة تمثل بدء دعوة نوح عليه السلام مع قومه، وبداية حديثه معهم وهو حديث يسوده العرض الهادئ والبيان الحكيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح:١- ٤].

وكما لاحظنا تميز كلّ واحد من الغرضين السابقين بفاصلة تخصُّه، نلاحظ كذلك اختلاف الفاصلة في الآيات التالية عن سابقتها، وحينما ننعم النظر نلاحظ أن هذه الآيات التالية إنما تمثل مرحلة جديدة من مراحل الدعوة تطورت فيها الدعوة من مرحلة البيان الهادئ إلى مرحلة جديدة من البيان الوجداني الذي تزداد فيه حدّة الانفعال العاطفي ترغيبا أو ترهيبا، إزاء هذا الصدّ والإعراض من قومه؛ فلذلك تميز هذا المقطع بفاصلة الراء الممدودة بألف المد التي تنتهي بها آيات هذا المقطع،

أما على مستوى اللفظة المفردة فنجد إيماءات صوتية، وإيحاءات فنية تتناغم مع الدلالات المعجمية للكلمات كما في:

(جِهارا - مِدْرَارًا- يُمْدِدْكُمْ- وَقَارًا- - بِسَاطًا- سُبُلا - فِجَاجًا)

حيث نلمح الشدَّة والجهرية في الجيم المجهورة في جهارا المتبوعة بمدين متتالين بعد حرف الهاء الآتي من الحنجرة مما يحكي عملية الجهر ويناسبها تمام المناسبة،

أما كلمة مدرارا فنحسُّ أنها تحكي تتابع الماء وهطوله وتكرر نزوله بتشكيلها الصوتي العجيب الذي تتكرر فيه الراء وهي حرف تكراري يظهر تكراره في النطق مما يدل على دقة اختيار هذه الكلمة التي تدل على التتابع والتكرار.

كذلك فإن تكرر الدال في يُمْدِدْكُمْ يحكي كذلك عملية الإمداد وما فيها من اتصال ونكاد نستشعر ذلك الاتصال من اتصال الدالين وتلاحمهما في مقدمة الأسنان.

كما نلاحظ كذلك مناسبة الوقار بما تشتمل عليه هذه الكلمة وَقَارًا من القاف المفتوحة المفخمة التي ينفتح فيها الفم بشيء من الاستعلاء مع المد بعدها معبرا عن هذا الوقار.

وفي كلمة بِسَاطًا نلمح البسط والمد والسهولة في مدِّ السين المهموسة، وما يتبع ذلك من الطاء الممدودة التي تكاد تحكي الطمأنينة والاستقرار.

وأما في (سُبُلا – فِجَاجًا) فيساعد التشكيل الصوتي للكلمتين على التفريق بين دلالتيهما والإيحاء بمعنييهما؛ حيث نلاحظ قلة حروف الكلمة سُبُلا وتتابع الضم فيها وتقارب مخارج حروفها مما يدل على الضيق نسبيا في مقابل الانفساح والسعة الملحوظة في فِجَاجًا التي يدل تتابع المدّ فيها على ذلك الانفساح.

<u>المستوى الصرفي:</u>

نجد جمال التوظيف الفني للصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق التناسب التام بين هذه الصيغ والمعاني التي تعبر الآيات عنها،

نجد ذلك على سبيل المثال في صيغ الكلمات التالية: (أَصَابِعَهُمْ- آذَانِهِمْ- وَاسْتَغْشَوْا- اسْتَكْبَرُوا- اسْتِكْبَارًا- مِدْرَارًا- يُمْدِدْكُمْ- أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - أَنْبَتَكُمْ – نَبَاتًا- وَيُخْرِجُكُمْ - إِخْرَاجًا- بِسَاطًا- سُبُلا - فِجَاجًا).

يُمْدِدْكُمْ: جاءت بصيغة المضارع لتدل على التجدد والاستمرارية فهو رفد وعطاء ونصرة وعون يتجدد بتجدد الأحوال والحاجة إليه.

ونلاحظ توظيف الآيات لصيغ الجمع نحو: (أَصَابِعَهُمْ- آذَانِهِمْ- أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - سُبُلا - فِجَاجًا).

فاختار الجمع أَصَابِعَهُمْ وهم لا يضعون إلا إصبعا واحدة للمبالغة والتهويل في عرض السورة ولبيان مدى ما هم عليه من المبالغة في الإعراض والصدِّ حتى أنهم لو استطاعوا وضع جميع أصابعهم لفعلوا.

وكذلك جمع آذَانِهِمْ رغم أنهم لا يضعون الإصبع إلى في أذن واحدة وليس لهم إلا أذنان فقط؛ فجمع ذلك للغرض السابق نفسه.

أموال: "تطلق على كل ما يُقْتَنَى ويملَك من الأَعيان "[١٦].

ومن ثم تشمل النقد والعرض والماشية والعقار والثياب، وبالجملة تطلق على كلِّ ما له قيمة؛ ففي هذه الكلمة إذا من عموم إيصال الخير والنفع ما ليس في غيرها،والنكتة في جمعها أن تشمل جميع صنوف المال وأنواعه، وتدل على تعدد وتنوع الخير الذي يصل إليهم _ إن أطاعوا الله تعالى _ ؛ فلا يقتصر على تصور أصل المال فقط عند الإطلاق، وهو الذهب والفضة "قال ابن الأثير المال في الأَصل ما يُملك من الذهب والفضة ثم أُطلِق على كلِّ ما يُقْتَنَى ويملَك من الأَعيان"[١٧].

كذلك فإن الجمع أَطْوَارًا جاء مناسبا لتعدد أطوار خلق الإنسان (نطفة فعلقة فمضغة فعظاما فكسى العظام لحما، ثم يخرجه طفلا، ثم يبلغه أشده، ثم يصيره كهلا فشيخا).

كما جمع (سُبُلا – فِجَاجًا) كذلك للدلالة على الكثرة والتعدد.

وقوله تعالى:(لو كنتم تعلمون) "جمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على استمرار النفي المفهوم من لو"[١٨].

المستوى النحوي (التركيبي):

التراكيب النحوية هي أساس النظم وعماده، وبدقتها وجمالها يكون التناسب والتناغم بين اللفظ والمعنى، وبين المقام وما تقتضيه مقتضيات الأحوال من خصائص تلك التراكيب؛ ومن ثم نلاحظ الدقة والتناسب التام بين هذه التراكيب و السياق والمقام الذي وردت فيه،

نلاحظ ذلك في التراكيب التالية:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح:٢] { قَالَ } استئناف بياني كأنه قيل فما فعل عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإرسال فقيل قال لهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ منذر موضح لحقيقة الأمر واللام في لكم للتقوية أو للتعليل أي لأجل نفعكم من غير أن أسألكم أجراً،وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح:٣] متعلق بنذير على مصدرية أن وتفسيريتها"[١٩].

وجملة: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [نوح:٤] مجزوم في جواب الأمر[٢٠].

(لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) أي: "لو كنتم تعلمون شيئاً"[٢١]. فحذف المفعول لتعميم الجهل ونفي العلم عنهم، والمقصود شيئا من أمر الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

"وقال الحسن: معناه لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخر." [٢٢].

قال ربي إني دعوت قومي ليلا ونهارا: عطف الظرف على ما قبله أفاد التتابع؛ فهو (كناية) عن الاستمرارية والتواصل.

﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦﴾ [نوح:٦] "مما دعوتهم إليه وإسناد الزيادة إلى الدعاء من باب المجاز العقلي الإسنادي حيث الإسناد هنا إلى السبب على حد الإسناد في (سرتني رؤيتك) وفراراً قيل: تمييز وقيل: مفعول ثان

بناء على تعدي الزيادة والنقص إلى مفعولين،وقد قيل إنه لم يثبت وإن ذكره بعضهم،وفي الآية مبالغات بليغة وكان الأصل فلم يجيبوني ونحوه فعبر عن ذلك بزيادة الفرار المسندة للدعاء وأوقعت عليهم من الإتيان بالنفي والإثبات(٢٣).

"وانتصاب { جهاراً } على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم: قعد القرفصاء، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، أي: دعاء جهاراً، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي: مجاهراً، ومعنى « ثم »: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما،"(٢٤).

وهذا الجهر يلزم عنه كثرة عدد من دعاهم نوح عليه السلام؛ حيث كان يتعرض لدعوتهم جماعات ووحدانا.

وذكر هذه الأحوال المختلفة من الدعوة ليلا ونهارا وإعلانا وإسرارا وخفية وجهارا، وغير ذلك من الدعوة الوجدانية والعقلية وغيرها كناية عن استفراغ نوح عليه السلام وسعه في دعوة قومه وهدايتهم.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح:١١] "أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، وقيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا

فعلى هذا يكون (مجازا مرسلا) علاقته المكانية، والآيتان: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٢] كناية عن عناية الله تعالى بهم وإمدادهم بالخير الكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح:١٧] عدلت الآية عن المصدر (إنباتا) إلى (نباتا)، وقد علل أغلب المفسرين للاختيار في

(أنبتكم) أنه ضمنه معنى الإنشاء[٢٦]. وكان الأولى أن يبينوا سر العدول في اسم المصدر (نباتا) إلا أنهم اكتفوا بتوجيهه بقولهم (والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتا) [٢٧].

أما الرازى فقد كان أطول عنقا فى رمق سر هذا العدول حيث قال: كان ينبغى أن يقال أنبتكم إنباتا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال أنبتكم نباتا، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتا. وفيه دقيقة لطيفة وهى أنه لو قال أنبتكم إنباتا كان المعنى أنبتكم إنباتاً غريبا، ولما قال أنبتكم نباتا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا. وهذا الثانى أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى،«وصفة الله تعالى غير محسوسة لنا» وصفة غير الله محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى.. وأما لما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقا لهذا المقام. فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف[٢٨] فالإنبات إنما ينظر فيه إلى صنع الله عز وجل وهو خفى، فعدلت الآية عنه إلى ما هو ظاهر وهو النبات حيث تتجلى فيه مظاهر الإبداع والقدرة، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعه، والامتنان على عباده بنعمه، وسياق الآيات يساعد ذلك المعنى أتم المساعدة.

فهذا المعنى البديع الذي تحصّل بطريق التضمين اجتمع فيه معنى المصدرين:(الإنبات) الذي هو صنع الله تعالى وصفته الخفية و (النبات) الذي هو أثر صفته سبحانه، ومظهر قدرته،

وقوله: {وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا} جاء على الأصل دون عدول في المصدر كقوله: "أنبتكم من الأرض نباتا" ولنا أن نتساءل عن السبب في ترك

العدول في هذه الجملة مقارنة بنظيرتها السابقة؛ ورغم أن الرازي قد أجاب عن العدول في الموضع الأول فإنه أهمل التعليل للعدول في هذا الموضع كأنه رأى أنه جاء على الجادة فلا يحتاج إلى تعليل؛ فقال:"وقوله: {وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}أكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًّا لا محالة،"(٢٩).

وكذلك فعل البيضاوي فقال:{وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} "بالحشر، وأكده بالمصدر كما أكد به الأول دلالة على أن الإعادة محققة كالإبداء، وأنها تكون لا محالة،"(٣٠).

وأرى أن التعليل بمجيء الكلام على الجادة لا يكفي؛ لأن تتابع هاتين الجملتين يمثلان معا نوعا من السياق الداخلي، والخروج عن هذا السياق الداخلي يمثل عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقي(٣١)، وهذا النوع من العدول يحتاج إلى تعليل كذلك بلا شك.

وقد اجتهدت في التعليل لهذا العدول عن السياق الداخلي فرأيت أنه لم يستمر على أسلوب العدول عن مصدر الفعل كما في (أنبتكم نباتا) فلم يقل: (أخرجكم خروجا)؛ بل قال: (أخرجكم إخراجا)؛ وذلك لأن (الإفعال) أي (الإخراج) إنما هو فعل الله تعالى، وإذا كان فعل الله لا يرى في الإنبات؛ فلذا عبَّر بالنبات وهو الفعل الظاهر؛ فإن إخراج العباد في الآخرة وإن كان فعلا لله تعالى فإنه مرئي مشاهد من العباد؛ ولذا عبَّر الله تعالى عن هذا اليوم بأنه يوم مشهود، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ [البروج:٣].

فهذا الإخراج آية مشاهدة يشاهدها العباد يوم القيامة، ومطلوب منهم أن يشاهدوه في الدنيا كذلك بقلوبهم وضمائرهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧].

السمات الأسلوبية العامة للحوار القرآني:

من خلال ما سبق عرضه من أمثلة الإعجاز الأسلوبي في الحوار القرآني نستطيع أن نلمح بعض السمات الأسلوبية العامة للحوار القرآني، من أهمها:

رعاية حال المخاطب:

وذلك كتوكيد الكلام للمخاطب لكونه شاكًّا أو منكرا:"قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢)"

وتليين الخطاب في بدء العرض: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح:٤].

والتدرج مع المخاطب المكذب بالترغيب قبل الترهيب: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٢].

وإغلاظ الخطاب لمن ظهر تكذيبه وإعراضه واستهزاؤه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٤- ١٥].

التنويع الأسلوبي للخطاب بحسب مقتضيات الأحوال:

فتارة يجنح إلى الأسلوب الوجداني: وذلك بالترغيب والترهيب على نحو ما مرّ، وتارة يجنح إلى الأسلوب العقلي التأملي:

وذلك بإقامة الحجة عليهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح:١٦].

أو بتذكيرهم بنعم الله تعالى وآلائه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح:٢٠].

وهكذا يدور الحوار القرآني في هذه السورة من أولها إلى آخرها على عرض كافة الأساليب الحوارية التي يمكن الإفادة منها في محاورة المخالفين في كلِّ زمان ومكان.

التصوير الفني والبياني في سورة القمر(٣٢):

المقصد العام والمقاصد الأساسية:

نستطيع أن نحدد المقصد العام لهذه السورة من خلال القراءة الأولى لآياتها حيث تدور جميع هذه الآيات حول مقصد واحد هو:

قضية الإيمان بالله تعالى وإثبات النبوة والبعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بـ«تقرير البعث والجزاء وتأكيده»؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر:٥]

٢ - ترهيب المكذبين بالبعث:

وذلك في قوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾ [القمر:٨]

٣- بيان حال المكذبين من الأمم السابقة وسوء عاقبتهم:

أ – تكذيب قوم نوح:

وذلك في قوله تعالى:

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥)﴾ [القمر:١٥].

ب – تكذيب عاد:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر:١٨- ٢٢]

ج – تكذيب ثمود:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾ [القمر: ٢٣- ٣٢]

د ـ تكذيب قَوْمُ لُوطٍ:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ [القمر:٣٣- ٤٠].

هـ ـ تكذيب قَوْمُ فرعون:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١- ٤٢].

٤- ترهيب الكافرين وتخويفهم بعاقبة المكذبين من قبلهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦]

٥ ـ تقرير البعث وترهيب المكذبين به:

وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر:٤٦- ٥٣].

٦- ترغيب وتبشير المؤمنين بالبعث المتقين لربهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤- ٥٥]

التحليل الأسلوبي للسورة:

إذا نظرنا إلى مقاصد هذه السورة وجدنا أن جميع آياتها يدور حول مقصد واحد هو:

قضية الإيمان بالله تعالى وإثبات النبوة والبعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بـ

المقصد الأول: تقرير البعث والجزاء وتأكيده:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر:٥]

حيث يؤكد الله تعالى أن الساعة التي يكذب بها هؤلاء الكافرون ويستبعدونها هي جدُّ قريبة؛ حيث ظهرت إحدى آياتها الدالّة عليها ، وهي انشقاق القمر شقين، وانفلاقه فلقتين في صورة مادية واضحة للعيان، لا ينكرها إلا البهت والعميان.

ورغم ذلك فهؤلاء الكافرون معرضون جاحدون لأدلة الإيمان وبراهينه الساطعة، وهذا هو شأنهم وديدنهم وطبيعتهم التي دأبوا عليها من الجحود والعناد والاستكبار ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:٢]

وتكذيبهم وعنادهم هذا ليس عن أدلة وبراهين تعارض ما جاء به الرسل؛ وإنما هو اتباع لأهوائهم الزائغة عن الحق والمعرضة عنه؛ وذلك رغم وضوح الحق واستقرار أمره، ورغم ما جاءهم من الأنباء الزاجرة بأحوال المكذبين من قبلهم وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في حكمة بالغة

مؤثرة، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ؟.أي: "{ فما تغنى النذر } مع هؤلاء الكفرة"(٣٣).

المقصد الثاني:ترهيب المكذبين بالبعث:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر:٦- ٨]

في الآيات السابقة: جاء قوله تعالى:(فما تغني النذر) تمهيدا للأمر بالتولي والإعراض عنهم في هذه الآيات، بعدما ثبت من حالهم أنهم لا ينتفعون بالآيات والنذر والحكم البالغة؛ فلم يبق إلا تخويفهم وتهديدهم بسوء العاقبة التي تنتظرهم جزاء تكذيبهم بالبعث؛ ومن ثم راحت الآيات تصفُ لهم بعض مشاهد البعث، وتصوِّر لهم حالهم في هذا اليوم الفظيع وما ينتظرهم فيه من الأهوال.

المقصد الثالث:

بيان حال المكذبين من الأمم السابقة وسوء عاقبتهم:

بدأت السورة الكريمة بتأكيد البعث وتقريره، وثنت بذكر بعض مشاهد البعث وحال المكذبين في ذلك اليوم ترهيبا لهم، ثم عرضت السورة بعد ذلك في هذا المقصد لأحوال المكذبين بالبعث من الأمم السابقة وما نزل بهم من العذاب والنكال في الدنيا قبل الآخرة حتى يكون في ذلك عبرة لهؤلاء المكذبين في زمان النبي ﷺ ومن بعدهم، فعددت ما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون، وقد كانوا أشد منهم وأكثر قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وذلك كله لا يخرج عن الخط الأساسي لهذه السورة الكريمة في تقرير قضية الإيمان بالله تعالى ورسله وتقرير قضية الحساب والجزاء والبعث والرجوع إلى الله تعالى؛ فهي تارة تبين ذلك بذكر الآيات الدالة عليه كانشقاق القمر، وتارة ترهب المكذبين به بما ينتظرهم في الآخرة، وفي هذا السياق ترهيب لهم بما ينتظرهم في الدنيا؛ وذلك لأن سنة الله في إهلاك المكذبين

والمعاندين لرسله لا تتخلف أبدا، وهذا ما يؤكده الله تعالى في ختام هذا العرض لأحوال المكذبين؛ حيث يقول في حق المكذبين في زمان النبي ﷺ:

في المقصد الرابع:

ترهيب الكافرين وتخويفهم بعاقبة المكذبين من قبلهم:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٣- ٤٥]

ومن ثم يعود في المقصد الخامس:

إلى: تقرير البعث وترهيب المكذبين به:

وذلك في قوله تعالى:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٤٦- ٥٣]

وينهي سياق السورة كذلك بتتميم حسن غير بعيد عن السياق وهو:

المقصد السادس:

ترغيب وتبشير المؤمنين بالبعث المتقين لربهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤- ٥٥]

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٣- ٤٦]

ملخص الوحدة

تناولت هذه الوحدة الحديث عن:

مفهوم كل من التصوير الفني والتصوير البياني مع التفريق بينهما وعرض نماذج كل منهما في القرآن الكريم.

بيان مفهوم التشبيه التمثيلي وعرض بعض نماذجه في القرآن الكريم مع التحليل البلاغي لتلك النماذج.

تقديم نموذج كلي للتصوير الفني والبياني من خلال مشهد دعوة نوح عليه السلام قومه مع التحليل الشامل سواء للصورة الفنية أو الصور البيانية الواردة بالنموذج كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه.

تقديم العناصر اللازمة لتحليل نموذج كلي آخر للتصوير الفني والبياني من خلال سورة القمر يستعين الدارس بعناصر التحليل والنموذج السابق لتحليل هذا النموذج على غراره كنوع من التدريب.

الهـــوامـــش

(٦٥) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز – ص ١٦

(٦٦) دلائل الإعجاز للجرجاني - (ج ١ / ص ٨٤)

(٦٧) تأمـل – علـى سـبيل المثـال : سـور القيامـة – المرسـلات – التكـوير – الانفطـار – الانـشقاق – القارعـة – الزلزلة ..الخ

(٦٨) في ظلال القرآن - (ج ٥ / ص ١٩٥)

(٦٩) المحيط في اللغة - (ج ٢ / ص ٣٣٦)

(٧٠) الصحاح في اللغة - (ج ١ / ص ٢٠٢)

(٧١) تفسير القرطبي - دار احياء التراث العربي - (ج ٧ / ص ٣٥٢)

(٧٢) لسان العرب - (ج ١١ / ص ٦٣٥)

(٧٣) جمهرة اللغة - (ج ١ / ص ٤١٨)

(٧٤) صحيح البخاري برقم (٤٩٣٥).

(٧٥) في ظلال القرءان (٣٣٦١/٦).

(٧٦) التحرير والتنوير (ج ٩ / ص ٥٤)

(٧٧) التحرير والتنوير (ج ٩ / ص ٥٤)

(٧٨) تفسير القرطبي - (ج ١٨ / ص ٣٠٦)

(٧٩) الكشاف - (ج ٤ / ص ٢١٨)

(٨٠) لسان العرب - (ج ١١ / ص ٦٣٥)

(٨١) لسان العرب - (ج ١١ / ص ٦٣٥)

(٨٢) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٨)

(٨٣) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٤)

(٨٤) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٦)

(٨٥) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٨)

(٨٦) تفسير القرطبي - دار احياء التراث العربي (ج ١٨ / ص ٣٠٠)

(٨٧) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣١٠)

(٨٨) فتح القدير - (ج ٧ / ص ٣١٢)

(٨٩) فتح القدير - (ج ٧ / ص ٣١٢)

(٩٠) الألوسى ٢٩/ ٧٥- الدر المصون ٦/٣٨٤- الكشاف ٤/١٢٤.

(٩١) الكشاف/ السابق، المحرر ٥/٣٧٥، الألوسى السابق، الدر المصون السابق.

(٩٢) الرازى ١٥/٧٤٣-٧٤٤.

(٩٣) تفسير الرازي - (ج ١٦ / ص ٥٨)

(٩٤) تفسير البيضاوي (ج ٥ / ص ٣٢٩)

(٩٥) انظر نظرية اللغة فى النقد العربى ٢٤٩ ، ٢٥٠ وأسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/ حسن طبل ص ٤٦، ٥٢.وانظر علم الأسلوب ص ١٩٣..

(٩٦) يقوم الطالب باستخراج الصور الفنية والبيانية في هذه السورة وبيان الوسائل التعبيرية المستخدمة في تشكيل تلك الصور على نحو النموذج السابق بيانه في مشهد دعوة نوح عليه السلام قومه.

(٩٧) البحر المحيط ١٧٤/١٠

المحتويات

رقم الإيداع
٢٠١٥/ ٩١٩٠
دار الهاني للطباعة والنشر
elhanyhamdy@yahoo.com